الدرة اليتيمة

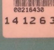
للأديب الكاتب

عبد الله بن المقفع

مع ترجمته الكاملة

قدم لها وضبطها وشرحها

أحمد رفعت البدراوي

الناشر
دار النجاح
بيروت



الدرة اليتيمة

للأديب الكاتب
عبد الله بن المقفع

مع ترجمته الكاملة

قدم لها وضبطها وشرحها
أحمد رفعت البدراوي

الناشر



* دار النجاح للطباعة والنشر والتأليف ، بيروت ، شارع سوريا
بناية صمدي وصالحه - ص ب ٨٢١٨ - ت ٢٤٥٨١٢
* مكتبة دار النجاح ، أحمد رفعت البدراوي ، القاهرة
شارع شبرا ١٢١ - ت ٩٤١٢٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

... حقيقة ثابتة ، التزمت بها بعض الأمم فارتقت وسادت ، وتجاهلتها أمم أخرى فانحدرت إلى مهاوي التخلف الاجتماعي والفكري..

لا تقدّم ، ولا استقرار ، ولا عزّة ، ولا رفاهية – دون مجتمع سليم – ملتزم بكريم الأخلاق . لذلك كان الاهتمام العظيم بالحياة الأخلاقية للمجتمع وبتربية الأفراد – وحدة كل مجتمع – تربية سليمة خلقية .

ولقد تطور هذا الاهتمام حتى اعتبر موضوع الأخلاق والحياة الأخلاقية للمجتمع وأفراده علماً قائماً بذاته ، يبحث في الأعمال الارادية للأفراد فيحكم عليها بالخير أو الشر ، ويوضح معنى الفضائل والرذائل وما ينبغي أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضاً ، ويشرح الغايات التي ينبغي أن يقصدها الناس في اعمالهم ..

ثم أصبح لعلم الأخلاق ، مبادؤه ومقاييسه وأصوله ، وعلاقاته بغيره من العلوم . ولاختلاف الغايات التي يقصدها الأفراد المختلفون طباعاً وأهدافاً ، من طلب للسلطة والجاه ، إلى طلب للشهرة والمال إلى غيرها ؛ ولاختلاف مدى الاستعداد الفردي للعمل بمبادىء السلوك القويم ؛ وكذلك لاختلاف قدرة الأفراد على السيطرة على طباعهم وغرائزهم ، كان لا بد أن تختلف طرق التربية وتتعدد وسائل دراسة علم الاخلاق .

إلا أن تساؤلات عدة تقفز إلى الذهن .. فهل مجرد دراسة علم الأخلاق وحفظ مبادئه ومذاهبه وفروعه تجعل الدارس صالحاً فاضلاً ؟ وهل يفقد من لم يدرس علم الاخلاق المقدرة على تمييز الخير والشر ؟.. والجواب أن معرفة مبادىء الأخلاق ليست مقصودة في حد ذاتها ، ولكن الهدف منها هو تأثر النفس البشرية واهتداؤها بما تحضّ عليه ، ومحاولة تهذيب الطبائع الانسانية الفطرية والسيطرة عليها .

فعلم الأخلاق ينير البصيرة ، ليعرف الفرد الخير والشر وآثارهما ، ولكن فائدته تتوقف على إرادتنا التي تنفذ المبادىء الاخلاقيـــة ، ودراسته تمنحنا قدرة أكبر وخبرة أعظم على تمحيص الأمور والأعمال التي تعرض لنا في حياتنا العامة ، وتقييمها تقييماً صحيحاً لا يخضع للعرف السائد أو العادات المألوفة التي كثيراً ما يتخذها غير الدارس مقياساً لحكمه على الأعمال ، فقد لا تتفق تلك العادات أو ذلك العرف مع المقاييس الثابتة لعلم الأخلاق .

والبحث في علم الأخلاق قديم .. ويعد **سقراط** أول من حاول محاولة جادة أن يبني معاملات الناس على أساس علمي ، وكان يرى أن الأخـــلاق والمعاملات لا تكون صحيحة إلا إذا أسست على العلم . وبعـــده ظهرت المذاهب الأخلاقية وتنوعت .

ثم جاء **أفلاطون** ، وكان يرى أن في النفس قوى مختلفة ، تنشأ الفضيلة من تعادلها وخضوعها لحكم العقل ، وحدّد أصول الفضائل بأربعة : الحكمة والشجاعة والفقه والعدل ، اعتبرها قوام المجتمعات والأمم .

ثم جاء **أرسطو** فوضع نظرية « الأوساط » ، أي أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين فالكرَمُ فضيلة وسط بين رذيلتي التبذير والبخل ، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور .

ثم جاءت المسيحية بأصول الأخلاق ، ووافقت تعاليم التوراة آراء فلاسفة اليونان في تقييم الأعمال خيرها وشرّها ، ولكنها خالفتهم في تحديد الباعث النفسـي على العمل ، فقد اعتبر فلاسفة اليونان أن الباعث على عمـــل الخير

هو « المعرفة والحكمة » أما في المسيحية فالباعث على عمل الخير هو حب الله والايمان به .

أما عن الأخلاق عند العرب ؛ فقد كان عند العرب في الجاهلية «حكماء» يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، يحثون على الفضائل ويحـــذرون من الرذائل المتعارفة لعهدهم .

وجاء الاسلام . فدعا إلى الإيمان بان الله عز وجلّ مصدر كل شيء في الكون ، وأنه سبحانه كما خلق الانسان وضع له نظاماً يتبعه وطريقاً يسير عليه وشرع له شريعة الحق والعدل ينال باتباعها السعادة في دنياه وآخرته ، ويتوقف صلاح المجتمع وانتظام شؤونه عليها .

وجاءت آيات القرآن الكريم سراجاً منيراً ...

« إن الله يأمُرُ بالعدل والإحسان وايتاءِ ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغْي يَعِظُكُم لعلكم تذكَّرُونَ » – سورة النحل / آية ٩٠ .

« ولا تمشِ في الأرض مرحاً إنكَ لن تَخرِقَ الأرضَ ولن تَبْلُغَ الجبال طولاً » – سورة الاسراء/آية ٣٧ .

« يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيَّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » – سورة الحجرات / آية ٦ .

. .

. .

« صدق الله العظيم »

ولم يشعر العلماء العرب بعد الإسلام بحاجة إلى البحث العلمي عن أسس الخير والشر ، فقد كانت تعاليم الاسلام ولا زالت عماد النظرة إلى الأفعال والحكم عليها ، عدا قلة بحثوا في الأخلاق بحثاً علمياً منهم الفارابي وابن سينا .

وفي العصر الحديث ، وعلى كثرة المذاهب الاجتماعية التي انتشرت لتضع أسس التعامل بين الأفراد والجماعات ، فإن معظمها لم يولِ علم الأخلاق اهتماماً

كعلم قائم بذاته منفصل عن المذاهب الاقتصادية والاجتماعية ، التي تعتمد في مبادئها وتنظيمها للعلاقات بين الافراد على العـــلاقة المادية دون اعتبار للقيم الروحية .

وفي عالم غلبت فيه المادية بمذاهبها ، واختلطت مفاهيم الاخلاق التي تمسّك بها الأولون ، وارتبك الأفراد في بناء علاقاتهم مع الآخرين ، وفي تحديـــد سلوكهم حيالهم .. يجدر بالمرء أن يعود إلى منابع الشرائع الإلهية يستمد منها العون والهداية في هذا الخضمّ المضطرب بكل مستحدث من الأفكار والمذاهب.. وأن يعود إلى آثار رجالات العرب القدامى ، ليجد فيهـــا خلاصة فكر مستنير وخبرة طويلة وعلم غزير ، ترشده إلى السلوك الاجتماعي القويم .

من هذه الآثار الجليلة، **هذه الدرة اليتيمة لعبدالله بن المقفع**، التي جمعت مع صغر حجمها أعلى طبقات البلاغة وأسمى درجات الحكمة . مما جعلها خليقة أن يتخذها الكاتب مثالاً في البلاغة وقوة التعبير يجدر به احتذاؤه ، وأن يضعها الانسان نصب عينيه يدرب نفسه على ما أوضحته من سُبُل التصرف والسلوك الاجتماعي .

لقد مرّت قرون على هذه الدرّة ، وبقيت صفحاتهـــا حافلة بالرأي والنصيحة، تنتظر من يحلل ويشرح حِكَمَها بأسلوب مبسّط مقارناً بمبادىء السلوك الاجتماعي في عصرنا الحديث «وإننا لنرجو أن نؤدي بعض ذلك في كتابنا — **الثورة الأخلاقية** — الذي نأمل بعون الله ان ننتهي منه قريبا » .

*

ولنجتزىء في هذه السطور ، نموذجاً من حكمة ابن المقفع نحكم به على صلاحية ربط آرائه بمبادىء السلوك الصحيح في هذا العصر.. يقول ابن المقفع:

« لا يعجبنّك إكرام من يكرمك لمنزلة أو سلطان فإن السلطة أوشك أمور الدنيا زوالاً ، ولا يعجبنّك إكرامهم إياك للنسب فإن الانساب أقل مناقب الخير غناءً عن أهلها في الدين والدنيا ، ولكن إذا أُكرمتَ على دينٍ

أو مروءة فذلك فليعجبك ، فإن المروءة لا تزايلك في الدنيـــا ، والدين لا يزايلك في الآخرة » .

إنها نصيحة مثلى يجدر بكل ذي منزلة أو منصب أو جاه وثروة اتباعها والتأمل في معانيها .. فما أكثر المنافقين الذين يسارعون إلى الالتفاف حول صاحب الجاه أو السلطة ، رافعين لواء الاعجاب المبالغ فيه بكل رأي يرتئيه وبكل عمل يؤديه !.. مظهرين الصداقة متقربين متوددين ، كل كلمة يتفوه بها ذو الجاه أو السلطة هي الحكمة الجامعة التي لم يسبقه اليها حكيم على مرّ العصور ! ، كل حديث ينطق به ولو كان سفهاً ممجوجاً هو الدرر تتساقط من فيه ! ، كل فكرة قد تطوف بذهنه المكدود ولو كانت واضحة التفاهة هي الإلهام والعبقرية !، كل مزحة وإن كانت مثال السخف هي اللطف والتواضع!

فصاحب السلطة أو الجاه أو المنصب جدير بأن يسائل نفسه عن حقيقة هذا الاعجاب المبالغ فيه ، وهذا المديح الذي يكال اليه .. هـــل يستحقه لشخصه وبحقّ أم أنه للمنصب الذي يشغله أو للسلطة التي وضعتها الأقدار في يده ؟ . وأين كانت هذه الصفات الحميدة ، من صواب في الرأي إلى الحكمة والكياسة والعبقرية ، يوم لم يكن مسؤولاً ذا منصب أو جاه أو ثروة ؟! .. هل هي خصال أصيلة حباه الله بها أم أنهـــا دعاوى المنافقين المتخصصين في اكتشاف مواهب كل ذي منصب أو سلطان ؟! .. وكم من جماعات المعجبين المتوددين سيبقى على آرائه ومديحه يوم يفقد المنصب او السلطة أو يزول الجاه؟

إن المسؤول قد تغرّه مظاهر الاعجاب والود والموافقة ، فتحجب عنه أخطاءه ، وتُفقِدُه المقدرة على سداد الرأي وسلامة التصرف . وما يلبث إلا أن يجني ثمار استسلامه لنشوة الرضى عن نفسه ، عندما يجد أنهار النفــاق والمديح الكاذب أضحت تصب عند خَلْفِه ! وعندما يفتقد الزوار الذين كانوا يتسابقون إلى مجلسه فلا يجد منهم واحداً يؤنسه في عزلته !.

وأصحاب المناصب والجاه والثروة غالباً ما يتجاهلون أن الاعجـــاب الحقيقي بالمرء ينبغي ألا يكون إلا إذا كان ذا دين ومروءة . وليس المقصود

بذلك أن يكون عالماً متخصصاً في أصول الفقه وفروعه ، بل أن يكون حريصاً على التمسك بأوامر الدين الحنيف واجتناب نواهيه ، والدين الحنيف لا يحضّ إلا على كل خلق كريم .

فلينزع كل صاحب سلطة أو جاه أو ثروة غشاوة النفاق التي يغطي بها المديح الكاذب عينيه .. وليعرض نفسه وأعماله ، على مقاييس الخلق الكريم والمروءة ليرى حقيقة أعماله وجهوده وتصرفاته وليرى وزنه الحقيقي في مجتمعه وأمته ، وليرى ، أخيراً ، الصورة الصادقة لمستقبله !

*

إن أمتنا العربية تمر في مرحلة من أخطر مراحل حياتها،يؤكد الكثيرون أنها تقترب كثيراً من مراحل الانحطاط والتخلف الحضاري والفكري والخلقي التي سبق ومرت بها خلال فترات من تاريخها الطويل . وإن أمتنا لا تحتاج إلى ثورة ثقافية أو اجتماعية بقدر ما هي في حاجة إلى « ثورة أخلاقية » تعيد إلى المجتمع العربي تقاليده الشريفة وخصاله الحميدة . وما كانت أمة العرب يوماً في مركز الصدارة إلا يوم كانت أمة الاخلاق . وإنه لعبث أن نحرص على مظاهر الحضارة ، ونجهد في اللحاق بركبها ، دون أن نهيء لها أسباب رسوخها وتمام الفائدة التي نرجوها ، بتهيئة نفوسنا وتسليحها بكل خلق كريم.

أحمد رفعت البدراوي

ترجمة المؤلف

هو عبدالله بن المقفع الكاتب المشهور بالبلاغة، صاحب الرسائل البديعة، وهو من أهل فارس ، وكان مجوسياً فأسلم على يد عيسى بن عليّ عمّ السفاح والمنصور الخليفتين الأولين من خلفاء بني العباس ، ثم كتب له واختص به ، ومن كلامه « شربت من الخُطَب رِيًّا ، ولم أضبط لها رَوِيًّا ، ففاضت ثم فاضت ، فلا هي نِظاما ، وليست غيرُها كلاما » . قال الهيثم بن عديّ : جاء ابن المقفع إلى عيسى بن علي فقال له : قد دخل الاسلام في قلبي ، وأريد أن أسلم على يدك ، فقال له عيسى : ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس ، فإذا كان الغد فاحضر ؛ ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم ، فجلس ابن المقفع يأكل ويُزَمْزِم على عادة المجوس ، فقال له عيسى : أتزمزم وأنت على عزم الاسلام ؟ فقال : أكره أن أبيت على غير دين ، فلما أصبح أسلم على يده .

وكان ابن المقفع مع فضله يُتَّهَم بالزندقة ، فحكى الجاحظ أن ابن المقفع ومُطيع بن إياس ويحيى بن زياد كانوا يُتهمون في دينهم ؛ قال بعضهم : فكيف نسي الجاحظ نفسه ؟. وكان المهدي بن المنصور الخليفة يقول : ما وجدتُ كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع ؛ وقال الأصمعي : صنف ابن المقفع المصنفات الحسان منها « الدرة اليتيمة » التي لم يصنف في فنّها مثلها ؛ وقال الأصمعي : قيل لابن المقفع : من أدّبَك ؟ فقال : نفسي ، إذا رأيتُ من غيري حسناً أتيته وإن رأيت قبيحاً أبيته . واجتمع ابن المقفع بالخليل ابن أحمد صاحب العروض ، فلما افترقا قيل للخليل : كيف رأيته ؟ فقال : علمه أكثر من عقله ، وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ فقال : عقله أكثر من علمه . ويقال : إن ابن المقفع هو الذي وضع كتاب « كليلة ودمنة » ،

وقيل إنه لم يضعه وإنما كان باللغة الفارسية فعرّبه ونقله إلى العربية ، وإن الكلام الذي في أول هذا الكتاب من كلامه . وكان ابن المقفع يعبث بسفيان ابن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة أمير البصرة وينال من أمـه ولا يسميه إلا بابن المغتلمة ، وكثر ذلك منه ، فقدم سليمان وعيسى ابنا علي البصرة – وهما عمّا المنصور – ليكتبا أماناً لأخيهما عبدالله بن علي بن المنصور ، وكان عبدالله المذكور قد خرج على ابن أخيه المنصور وطلب الخلافة لنفسه ، فأرسل إليه المنصور جيشاً مُقدّمه أبو مسلم الخراساني ، فانتصر أبو مسلم عليه . وهرب عبدالله بن علي إلى أخويه سليمان وعيسى، واستتر عندهما خوفاً على نفسه من المنصور ، فتوسّطا له عند المنصور ليرضى عنه ، ولا يؤاخذه بما جرى منه ، فقبل شفاعتهما، واتفقوا على أن يُكتب له أمانٌ من المنصور ، وهذه الواقعة مشهورة في كتب التواريخ . وقد أتيتُ منها في هذا المكان بما تدعو الحاجة إليه لينبني الكلام بعضه على بعض . فلما أتيا البصرة قالا لعبدالله بن المقفع : اكتبه أنت وبالغ في التأكيد كي لا يقتله المنصور . وقد ذكرتُ أن بن المقفع كان كاتباً لعيسى بن علي،فكتب ابن المقفع الأمان وشدّد فيه حتى قال في جملة فصوله: « ومتى غدَرَ أمير المؤمنين بعمه عبدالله بن علي، فنساؤه طوالق ، ودوابه حُبُس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون في حِلٍّ من بيعته » .

وكان ابن المقفع يتنوّق في الشروط ، فلما وقف عليه المنصور عَظُمَ ذلك عليه ، وقال : مَنْ كتب هذا ؟ فقالوا له : رجل يقال له عبدالله ابن المقفع ، يكتب لأعمـامك ، فكتب إلى سفيان متولي البصرة المقدم ذكره يأمره بقتله ، وكان سفيان شديد الحنق عليه للسبب الذي تقـدم ذكره ، فاستأذن ابن المقفع يوماً على سفيان ، فأخّر إذنه حتى خرج مَنْ كان عنده ، ثم أذن له فدخل ، فعدل به إلى حجرة فقُتِل فيها .

وقال المدائني : لما دخل ابن المقفع على سفيان ، قال له : أتذكر ما كنت تقول في أمي ؟ فقال : أنشدك الله أيها الأمير في نفسي ، فقـال : أمي مغتلمة إن لم أقتلك قتلةً لم يقتل بها أحد ، وأمر بتنور فسُجّر ، ثم أمر

بابن المقفع فقطعت أطرافه عضواً عضواً ، وهو يلقيها في التنور،وهو ينظر ، حتى أتى على جميع جسده ، ثم أطبق عليه التنور ، وقال : ليس عليّ في المثلة بك حَرَج لأنك زنديق وقد أفسدت الناس .

وسأل سليمان وعيسى عنه فقيل : إنه دخل دار سفيان سليما ولم يخرج منها ، فخاصماه إلى المنصور ، وأحضراه اليه مقيداً ، وحضر الشهود الذين شاهدوه وقد دخل داره ولم يخرج ، فأقاموا الشهادة عند المنصور ، فقال لهم المنصور : أنا أنظر في هذا الأمر ، ثم قال لهم : أرأيتم إن قتلتُ سفيان به ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت – وأشار إلى باب خلفه – وخاطبكم ، ما تروني صانعاً بكم ؟ أأقتلكم بسفيان ؟! . فرجعوا كلهم عن الشهادة ، وأضرب عيسى وسليمان عن ذكره ، وعلموا أن قتله كان برضا المنصور . ويقال : إنه عاش ستاً وثلاثين سنة .

وذكر الهيثم بن عدي أن ابن المقفع كان يستخف بسفيان كثيراً ، وكان أنف سفيان كبيراً ، فكان إذا دخل عليه قال : السلام عليكما ! يعني نفسه وأنفه ! – وقال له يوماً : ما تقول في شخص مات وخلّف زوجاً وزوجة ؟ يسخَر به على رؤوس الناس . وقال سفيان يوماً : ما ندمتُ على سكوت قطُّ ، فقال له ابن المقفع : الخرسُ زينٌ لك فكيف تندم عليه ؟!. وكان سفيان يقول : والله لأقطعنه إرباً إرباً وعينه تنظر ، وعزم على أن يغتاله ، فجاءه كتاب المنصور بقتله فقتله .

وقال البلاذري : لما قدم عيسى بن علي البصرة في أمر أخيه عبدالله ابن علي قال لابن المقفع : اذهب إلى سفيان في أمر كذا وكذا ، فقال : ابعث له غيري ، فإني أخاف منه . فقال : اذهب فأنت في أماني ، فذهب اليه ففعل به ما ذكرناه ، وقيل : إنه ألقاه في بئر الخرج وردم عليه الحجارة ، وقيل أدخله حماماً وأغلق عليه بابه فاختنق .

قلتُ: ذكر صاحبنا شمسالدين أبو المظفر يوسف الواعظ سبط الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي الواعظ المشهور في تاريخــه الكبير الذي سمّاه « مرآة الزمان » اخبار ابن المقفع وما جرى له وقتله في سنة خمس وأربعين

ومائة ، ومن عادته أن يذكر كل واقعة في السنة التي كانت فيها، فيدل على أن قتله كان في السنة المذكورة ، وفي كلام عمر بن شبة في كتاب «أخبار البصرة» ما يدل على أن ذلك كان في سنة اثنتين وأربعين ومائة أو ثلاث وأربعين .

ولا خلاف في أن سليمان بن علي المقدم ذكره مات في سنة اثنتين وأربعين ومائة ، وقد ذكرنا أنه قام مع أخيه عيسى بن علي في طلب ثأر ابن المقفع ، فيدل أيضاً على أنه قتل في هذه السنة والله أعلم .

وابن المقفع له شعر ، وهو مذكور في كتاب «الحماسة» ، وفي ترجمة أبي عمرو بن العلاء المقرىء له مرثية فيه.[1] وقد قيل : إنها لولده محمد بن عبدالله ابن المقفع على ما ذكرته هناك من الخلاف . فليُنظر فيه . وكيفما كان ، فإن تاريخ قتله لم يكن بعد سنة خمس وأربعين ومائة وإنما كان فيها أو فيما قبلها ، وإذا كان كذلك، فكيف يُتصور أن يجتمع بالحلاج والجنّابي – كما ذكره إمام الحرمين رحمه الله تعالى – ومن ها هنا حصل الغلط ، وأيضا فإن ابن المقفع لم يفارق العراق ، فكيف يقول : إنه توغل في بلاد الترك ، وإنما كان مقيماً بالبصرة ويتردد في بلاد العراق ، ولم تكن بغداد موجودة في زمنه ، فإن المنصور أنشأها في مدة خلافته : فاختَطّها في سنة أربعين ومائة ، واستتم بناءها ونزلها في سنة ست وأربعين ، وفي سنة تسع وأربعين تم جميع بنائها ، وهي بغداد القديمة التي كانت بالجانب الغربي على دجلة، وهي بين الفرات ودجلة كما جاء في الحديث المروي عن رسول الله ﷺ أنه تنشأ مدينة في هذا المكان وهذا الحديث هو الذي ذكره الخطيب أبو بكر البغدادي في أول تاريخه الكبير وقد غاب عني الآن لفظه فلهذا لم أذكره . وبغداد في هذا الزمان هي الجديدة التي في الجانب الشرقي وفيها دُور الخلفاء ، وهي قاعدة الملك في هذا الوقت ، وكان السفاح واخوه المنصور قد نزلا بالكوفة ، ثم بنى السفاح بليدة عند الأنبار سمّاها الهاشمية ، فانتقلا إليها ، ثم انتقلا إلى الأنبار ، وبها مات

(١) أنظر ترجمة أبي عمرو بن العلاء ، في وفيات الأعيان لابن خلكان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، طبعة دار صادر – بيروت وانظر ترجمة ابن المقفع ص ١٥٤ ج ٢ نفس المصدر.

السفاح وقبره ظاهر بها،وأقام المنصور على ذلك إلى أن بنى بغداد فانتقل إليها.

والمقَفَّعُ – بضم الميم وفتح القاف وتشديد الفاء وفتحها وبعدها عـين مهملة – واسمه « داذويه » ، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي في أيام ولايته العراق وبلاد فارس قد ولاّه خراج فارس فمدّ يده وأخذ الأموال ، فعذّبه فتقفّعَتْ يده فقيل له المقفع ؛ وقيل : بل ولاه خالد بن عبدالله القسري ، وعذبه يوسف بن عمر الثقفي لما تولى العراق بعد خالد ، والله أعـلم أيّ ذلك كان .

وقال ابن مكي في كتاب « تثقيف اللسان » : ويقولون : ابن المقفَّع والصواب ابن المقفِّع – بكسر الفاء – لأن أباه كان يعمل القِفَاع ويبيعها .

قلت : والقِفاعُ بكسر القاف جمع قَفْعَة بفتح القاف ، وهي شيء يعمل من الخوص شبيه الزبيل لكنه بغير عُرْوة ، والقول الأول هو المشهور بين العلماء ، وهو فتح الفاء .

قلت : ولما وقفت على كلام إمام الحرمين – رحمه الله تعالى – ولم يمكن أن يكون ابن المقفع أحد الثلاثة المذكورين قلت : لعـله أراد « المقَنَّع الخراساني » الذي ادعى الربوبية ، وأظهر القمر ، فإن اسمه عطاء ، ويكون الناسخ قد حرّفَ كلام إمام الحرمين فأراد أن يكتب « المقنّع » فكتب « المقَفّع » فإنه يقرب منه في الخط . فيكون الغلط والتحريف من الناسخ لا من الإمام ، ثم أفكرت في أنه لا يستقيم أيضاً ، لأن المقنع الخراساني قتل نفسه بالسم في سنة ثلاث وستين ومائة ، فما أدرك الحلاّج والجنابي أيضاً .





الحمد لله رب العالمين وصلواته على نبينــا محمد وآله الطاهرين. قال عبدالله بن المقفع : وجدنا النـاس قبلنـا كانوا أعظم أجساداً وأوفر مع أجسادهم أحلاماً ، وأشد قوة وأحسن بقوتهم للامور إتقانـاً ، وأطول أعماراً وأفضل باعمارهم للاشياء اختباراً ، فكان صاحبُ الدين منهم أبلغ في أمر الدين علماً وعملاً من صاحب الدين منا ، وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل .

ووجدناهم لم يرضوا بمـا فازوا به من الفضل لأنفسهـم حتى أشركونا معهم فيما أدركوا من عـلم الأولى والآخرة فكتبوا به الكتب الباقية وكفونا به مؤونة التجارب والفطن ، وبلغ من اهتمامهم بذلك أنّ الرجل منهم كان يُفتح له الباب من العلم والكلمـة من الصواب وهو بالبلد غير المأهول فيكتبه على الصخور مبادرةً منه للأجل وكراهيـةً لأن يُسقط ذلك على من بعده[1] ،فكان صنيعهم في ذلك صنيع الوالد الشفيق على ولده

(١) أي يفوته ، فتضيع عليه فائدته .

الرحيم بهم الذي يجمع لهم الأموال والعُقد[1] إرادةَ أن لا تكون عليهم مؤونة في الطلب وخشية عجزهم إن هم طلبوا . .

فمنتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم ، وغايةُ إحسان محسننا أن يقتدي بسيرتهم ، وأحسن ما يصيب من الحديث محدِّثنا أن ينظر في كتبهم فيكون كانه إياهم يحاور ومنهم يستمع . غير أن الذي نجد في كتبهم هو المنتخل[2] في آرائهم والمنتقى من أحاديثهم ، ولم نجدهم غادروا شيئاً يجد واصفٌ بليغٌ في صفةٍ له مقالاً لم يسبقوه إليه لا في تعظيمٍ لله عز وجل وترغيب فيما عنده ، ولا في تصغير للدنيا وتزهيد فيها ، ولا في تحرير صنوف العلم وتقسيم أقسامه وتجزئة أجزائها وتوضيح سبلها وتبيين مآخذها ، ولا في وجوه الأدب وضروب الأخلاق ، فلم يبقَ في جليل من الأمر لقائلٍ بعدهم مقال . وقد بقيت أشياءُ من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار الفطن مشتقة من جسام حِكم الأولين وقولهم ، ومن ذلك بعضُ ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس .

(١) جمع عقدة ، وهي العقار الذي اعتقده صاحبه ملكاً .

(٢) انتخل وتنخّل الشيء : صفاه واختاره وأخذ أفضله .

أُصول الأمور

يا طالب الأدب اعرف الأصول والفصول فإن كثيراً من الناس يطلبون الفصول مع إضاعة الأصول فلا يكون دَرْكهم[1] دركاً، ومن أحرز الأصول اكتفى بها عن الفصول، وإن أصاب الفصل بعد إحراز الأصل فهو أفضل.

فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب وتجتنب الكبائر وتؤدي الفريضة فالزم ذلك لزوم من لا غناءً به عنه طرفة عين، ومن يعلم أنّه إن حُرِمَه هلَك، ثم إن قدرتَ أن تجاوز ذلك إلى التفقّه في الدين والعبادة فهو أفضل وأكمل. وأصل الأمر في إصلاح الجسد ألاّ تحمل عليه من المآكل والمشارب والباه إلا خفافاً وإن قدرت على أن تعلم جميع منافع الجسد ومضارّه والانتفاع بذلك فهو أفضل. وأصل الأمر في البأس ألاّ تحدث نفسك بالإدبار وأصحابك مقبلون على عدوهم،ثم إن قدرت أن تكون أول حامل وآخر منصرف من غير تضييع للحذر فهو أفضل. وأصل الأمر في الجود ألاّ تضنّ بالحقوق عن أهلها ثم إن قدرت أن تزيد ذا الحق على حقه وتطول على من لا حق له فافعل فهو أفضل. وأصل الأمر في الكلام أن تسلم من السَّقَط[2] بالتحفّظ ثم إن قدرت على بارع الصواب فهو أفضل. وأصل الأمر في المعيشة أن

(١) الدَّرْك والدَّرَك: اللحاق والوصول إلى الشيء، إدراك الحاجة. ولم يستعمل منه فعل ثلاثي.

(٢) السَّقَط: ما لا خير فيه من كل شيء.

لا تنيِ عن طلب الحلال وأن تحسن التقدير لما تفيد ومـــا تنفق ولا يغرَّنك من ذلك سعةٌ تكون فيهـــا فإن أعظم الناس في الدنيا خطراً أحوجهم إلى التقدير ، والملوك أحوج إلى التقدير من السوقة لأن السوقة قد يعيش بغير مال والملوك لا قوام لهم إلا بالمال ، ثم إن قدرت على الرفق واللطف في الطلب والعلم بالمطالب فهو أفضل .

وأنا واعظك في أشياء من الأخلاق اللطيفة والأمور الغامضة التي لو حنكتك سنٌ كنت خليقاً أن تعلمها وإن لم تخبر عنها ، ولكن أحببت أن أقدم إليك فيها قولاً لتروّض نفسك على محاسنهـا قبل أن تجري على عادة مساويها ، فإن الإنسان قد تبتدر إليه في شبيبته المساوي وقد يغلب عليه ما يبدر إليه منها ..

❁

إن ابتُليتَ بالامارة فتعوّذ بالعلماء واعلم أن من العجب أن يُبتلى الرجل بها فيريد أن ينتقص من ساعات نصَبِـه وعمله فيزيدها في ساعات دعته وشهوته، وإنما الرأي له والحق عليه أن يأخذَ لعمله من جميع شغله فيأخذ من طعامه وشرابه ونومه وحديثـه ولهوه ونسائه ، فإذا تقلدت شيئاً من الأعمال فكن فيه أحد رجلين : إما رجلاً مغتبطاً به فحافَظَ عليه مخافة أن يزول عنه ، وإما رجلاً كارهاً فالكاره عاملٌ في سُخرَةٍ إما للملوك إن كانوا هم سلطوه وإما لله إن كان ليس فوقه غيره .

وإياك إذا كنت والياً أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلمةً [1] من الثلم يَتَقَحَّمون عليك

(١) الثلمة في الحائط ونحوه: الخلل — ومكان الكسر من الشيء المكسور.

منها وباباً يفتتحوك منه وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منها . اعلم أن قابل المدح كادح نفسه والمرءُ جدير أن يكون حبه المدح هو الذي يحمله على رده فان الراد له محمود والقابل له معيب . لتكن حاجتك في الولاية إلى ثلاث خصال : رضى ربك ، ورضى سلطان إن كان فوقك، ورضى صالح من تلي عليه . وما عليك أن تلهو عـن المال والذكر فسيأتيك منهما ما يكفي ويطيب ، واجعل الخصال الثلاث بمكان ما لا بد لك منه والمال والذكر بمكان ما أنت واجد منه بداً .

اعرف أهل الدين والمروءة في كل كورة وقرية وقبيـلة فيكونوا هم اخوانك وأعوانك وبطانتك وثقاتك ولا يقذفنَّ في رُوعك أنك إن استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غـيرك ، فانك لست تريد الرأي للافتخار بـه ولكن تريده للانتفاع بـه ، ولو أنك مع ذلك أردت الذكر كان أحسن الذكرين وأفضلهـا عند أهل الفضل أن يقال لا يتفرّد برأيه دون استشارة ذوي الرأي ..

●

إنك إن تلتمس رضى جميع الناس تلتمس مـا لا يدرك ، وكيف يتفق لك رأي المختلفين ، وما حاجتك الى رضى مَن رضاهُ الجورُ وإلى موافقة من موافقتهُ الضلالةُ والجهالة، فعليك بالتماس رضى الاخيار منهم وذوي العقل فانك متى تُصِبْ ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه .

لا تمكنْ أهل البلاء من التذلل ولا تمكن مَنْ سواهم من الاجتراء عليهم والعيب لهم . لتعرف رعيتك أبوابك التي لا يُنال مـا عندك من الخير إلا بها ، والأبواب التي لا يخافك خائف إلا من قبلهـا . احرص الحرص

كله على أن تكون خبيراً بأمور عمالك فـان المسيءَ يَفـرَق من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك ، وإن المحسن يستبشر بعلمك قبل أن يأتيه معروفك .

ليعرف الناس فيما يعرفون من أخلاقك أنك لا تعاجل بالثواب ولا بالعقاب فان ذلك أدوَم لخوف الخائف ورجاء الراجي .

عوّد نفسك الصبر على من خالفك من ذوي النصيحة والتجرّع لمرارة قولهم وعذلهم ، ولا تسهلن سبيل ذلك إلا لأهل العقل والسن والمروءَة لئلا ينتشر من ذلك ما يجترىءُ به سفيه أو يستخفّ له شانٌ . لا تتركن مباشرة جميع أمرك فيعود شانك صغيراً ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير فيصير الكبير ضائعاً .

❁

اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ففرّغه للمهم ، وأنّ مالك لا يغني الناس كلهم فاختصّ به ذوي الحقوق ، وأن كرامتك لا تطيق العامة فتوّج بها أهل الفضائل ، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك وإن دأبتَ فيهما وانه ليس لك إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه منهما فاحسن قسمتهما بين دعتك وعملك . واعلم أنك مـا شُغِلت من رأيك بغير المهم أزرى بالمهم،وما صرفت من مالك بالباطل فَقَـدْتَهُ حين تريدهُ للحق ، وما عدلت بـه من كرامتك إلى أهل النقص أضرّ بك في العجز عـن أهل الفضل ، وما شغلت من ليلك ونهارك في غـير الحاجة أزرى بك في الحاجة .

اعلم أن من الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب إذا غضب أن

يحمله ذلك على الكلوح والتقطيب في وجه غير من أغضبه وسوء اللفظ لمن لا ذنب له والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته وسوء المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك ؛ ثم يبلغ به الرضى إذا رضي أن يتبرّع بالأمر ذي الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ويعطي من لم يكن أعطاه ويكرم من لا حق له ولا مودة ، فاحذر هذا الباب كله فانه ليس أحد أسوأ حالاً من أهل القدرة الذين يفرّطون باقتدارهم في غضبهم وسرعة رضاهم، فانه لو وصف بصفة من يتلبّس بعقله أو يتخبّطه المسّ من يعاقب في غضبه غير من أغضبه ويحبو عند رضاه غير من أرضاه لكان جائزاً في صفته .

مع الولاة وأصحاب السلطان

اعلم ان الملك ثلاثة : ملك دين ومُلك حزم ومُلك هوى ، فأما ملك الدين فانه إذا أقيم لأهله دينهم وكان دينهم هو الذي يعطيهم ما لهم ويلحق بهم الذي عليهم أرضاهم ذلك ونزل الساخط منهم منزلة الراضي في الاقرار والتسليم . وأما ملك الحزم فانه يقوم به الأمر ولا يسلم من الطعن والتسخط ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوي . وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر .

إذا كان سلطانك عند جِدَّة دولةٍ فرأيت أمراً استقام بغير رأي وأعواناً جزوا بغير نيل وعملاً أنجح بغير حزم فلا يغرنك ذلك فلا تستنم اليه ؛ فان الأمر الجديد مما تكون له مهابة في أنفس أقوام وحلاوة في أنفس آخرين فيعين قوم بأنفسهم ويعين قوم بما قبلهم ويستتب بذلك الأمر غير طويل ، ثم تصير الشؤون الى حقائقها وأصولها فما كان من الأمر بُني على غير أركانٍ وثيقةٍ ولا عماد محكم أوشك أن يتداعى ويتصدَّع .

لا تكوننَّ نزرَ الكلام والسلام ولا تفرطن بالهشاشة والبشاشة فان احداهما من الكِبْر والأخرى من السُّخف .

إذا كنت لا تضبط أمرك ولا تصول على عدوّك إلا بقوم لست

منهم على ثقة من رأي ولا حفاظ من نية ، فلا تنفعك نافعة حتى تحوّلهم إن استطعت إلى الرأي والأدب الذي بمثله تكون الثقة ، أو تستبدل بهم إن لم تستطع نقلهم إلى ما تريد ، ولا تغرنك قوتك بهم وإنما أنت في ذلك كراكب الأسد الذي يهابه من نظر اليه وهو لمركبه أهيب !

ليس للملك أن يغضب لأن القدرة من وراء حاجته . وليس له أن يكذب لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على غير ما يريد . وليس له أن يبخل لأنه أقلّ الناس عذراً في تخوّف الفقر . وليس له أن يكون حقوداً لأن خطره قد عظُم عن مجازاة كل الناس . فليتّق أن يكون حلاّفاً وأحق الناس باتقاء الأيمان الملوك ، فإنما يحمل الرجل على الحلف إحدى هذه الخلال : إما مهانة يجدها في نفسه وضرع[1] وحاجة إلى تصديق الناس إياه ، وإما عيّ[2] بالكلام حتى يجعل الأيمان له حشواً ووصلاً ، وإما تهمة قد عرفها من الناس لحديثه فهو ينزّل نفسه منزلة من لا يُقبل منه قوله إلا بعد جُهد اليمين ، وإما عبث في القول أو إرسال اللسان على غير رويّة ولا تقدير .

لا عيب على الملك في تعيشه وتنعمه إذا تعهد الجسيم من أمره وفوّض ما دون ذلك إلى الكفاة .

❁

---

(١) الضرع : الضعف . والجبن ، والتذلل .
(٢) العيّ بالأمر وعنه العجز عنه والجهل به وعدم الاهتداء لوجه مراده .

كل الناس حقيق حين ينظر في أمر النـــاس أن يُتَّـهَم نظره بعين الريبة وقلبه بعين المقت فانهما يُريان الجور ويحملان على الباطل ويقبحان الحسن ويحسّنان القبيح . وأحق الناس باتهام عين الريبة وعين المقت الملك الذي مـــا وقع في قلبه ربا مع ما يُقيِّضُ له من تزيين القرناء والوزراء ، وأحق الناس باجـــبار نفسه على العدل في النظر والقول والفعل الوالي الذي ما قال أو فعل كان أمراً نافذاً غير مردود .

ليعلم الوالي أنَّ الناس يصفون الولاة بسوء العهـــد ونسيان الود ، فليكابد نقضَ قولهم وليبطـل عن نفسه وعن الولاة صفـاتِ السوء التي يوصفون بها .

ليتفقد الوالي فيما يتفقد من أمور الرعية فاقةَ الأحرار منهم فليعمل في سدها وطغيـــانَ السفلة منهم فليقمعه ، وليستوحش [1] من الكريم الجائع واللئـيم الشبعان ، فإنما يصول الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبـع . لا يحسدن الوالي مَنْ دونه فانه في ذلك أقل عذراً من السوقة التي إنمـــا تحسد من فوقهـا وكلٌّ لا عذر له . لا يـلومنَّ الوالي على الزلة من ليس بتهم على الحرص على رضاه إلا لوم أدب وتقويم ، ولا يَعدلنّ بالمجتهد في رضاه البصير بما يأتي أحداً ، فانهما إذا اجتمعا في الوزير أو الصاحب نام الوالي واستراح وجُلبت اليه حاجاته وإن هدأ عنها وعمل فيما يهمه وإن غفل . ولا يولعنَّ الوالي بسوء الظن لقول الناس وليجعل لحسن الظن من نفسه نصيباً موفوراً يروّح به عن قلبه ويُصدر به أعمـــاله . لا

(١) استوحَشَ منه : لم يأنس به ، وخشي ثورته أو غدره . والمقصود: أن يتقي الشر المتوقع من كل منهما .

يضيعنّ الوالي التثبت عند ما يقول وعندما يعطي وعند ما يفعل فان الرجوع عن الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام ، وإن العطية بعد المنع أجمل من المنع بعد الإعطاء ، وإن الإقدام على العمل بعد التأني فيه أحسن من الإمساك عنه بعد الإقدام عليه . وكل الناس محتاج إلى التثبت وأحوجهم اليه ملوكهم الذين ليس لقولهم وفعلهم دافع وليس عليهم مستحَثٌ . ليعلم الوالي أن الناس على رأيه إلا من لا بال له منهم فليكن للبرّ والمروءة عنده نفاقٌ فيستكسد بذلك الجورَ والدناءة في آفاق الأرض .

جاعُ [1] ما يحتاج إليه الوالي رأيان رأي يقوي سلطانه ورأي يزينه في الناس ، ورأي القوة أحقها بالبداية وأولاها بالأثرة ، ورأي التزيين أحضرها حلاوةً وأكثرها أعواناً مع أن القوة من الزينة والزينة من القوة لكن الأمر ينسب إلى أعظمه .

❁

إن شغلتَ بصحبة الملوك فعليك بطول الرابطة في غير معاتبة ولا يحدثنّ لك الاستئناس غفلةً ولا تهاوناً . إذا رأيت أحدهم يجعلك أخاً فاجعله أباً ثم إن زادك فزده . إذا نزلت من ذي منزلة أو سلطان فلا ترينّ أن سلطانه زادك له توقيراً وإجلالاً من غير أن يزيدك ودّاً ولا نصحاً ، وأنك ترى حقاً له التوقير والإجلال ، وكن في مداراته والرفق به كالمؤتنف [2] ما قبله، ولا تقدّر الأمر بينك وبينه على ما كنت تعرف

(١) جماع الشيء : جمعه ، ومنه الخمر جماع الاثم أي جامعة لكل أصناف الاثم .

(٢) ائتنف : استأنف .

من أخلاقه فان الأخلاق مستحيلة مع الملك وربما رأينا الرجل المدِلَّ على ذي السلطان بقِدَمِه قد أضرَّ بهِ قدمه .

لا تعتذرنَّ إلا إلى من يحب أن يجد لك عذراً ولا تستعينَنَّ إلا بمن يحب أن يظفَر لك بحاجتك . لا تحدِّثنَّ إلا من يرى حديثك مغنماً ما لم يغلبك الاضطرار . إذا غرست من المعروف غرساً وأنفقت عليه نفقةً فلا تَضِنَنَّ بالنفقة في تربية ما غرست فتذهب النفقة الأولى ضياعاً. إذا اعتذر إليك معتذر فتلقَّه بوجهٍ مُشرق وبشرٍ طليق إلا أن يكون ممن قطيعته غنيمة .

اعلم أنَّ إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا ، زينةٌ في الرَّخاء ، وعدَّة في الشدَّة ، ومعونة على المعاش والمعاد . فلا تفرِّطن في اكتسابهم وابتغاءِ الوصلات والأسباب إليهم . اعلم أنك واجدٌ رغبتك من الإخاء عند أقوام قد حالت بينك وبينهم بعض الأُبهة التي قد تعتري أهل المروآت فتحجز منهم كثيراً ممن يرغب في أمثالهم، فإذا رأيت أحداً من أولئك قد عثر به الزمان فاقِلْه .

إذا عرفت نفسك من الوالي بمنزلة الثقة فاعزل عنه كلام الملَق ولا تكثرنَّ من الدعاءِ له في كل كلمة فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة إلا أن تكلمهُ على رؤوس الناس فلا تألُ عما عظَّمهُ ووقَّره . إن استطعت ألا تصحب من صحبتَ من الولاة إلا على شُعْبَةٍ من قَرابةٍ أو مودة فافعل ، فإن أخطأك ذلك فاعلم أنَّك تعمل على عمل السخرة ، وإن استطعت أن تجعل صحبتك لمن قد عرفك منهم بصالح مروَّتك قبل ولايته فافعل . إنَّ الوالي لا علم له بالناس إلا ما قد علم قبل ولايته فأما

إذا ولي فكل الناس يلقاه بالتزيُّن والتصنُّع وكلهم يحتال لأن يثني عليه عنده بما ليس فيه غير أن الأرذال والأنذال هم أشدُّ لذلك تصنعاً وعليه مكابرةً وفيه تمحُّلاً [١] ؛ فلا يمتنعُ الوالي وإن كان بليغَ الرأي والنظر من أن ينزل عندهُ كثيرٌ من الأشرار بمنزلة الأخيار وكثيرٌ من الخانة [٢] بمنزلة الأمناءِ وكثير من الغَدَرَة بمنزلة الأوفياءِ، ويغطِّي عليه أمرُ كثيرٍ من أهل الفضل الذين يصونون أنفسهم عن التمحّل والتصنّع .

لا يعرفنَّك الولاةُ بالهوى في بلدة من البلدان ولا قبيلةٍ من القبائل فيوشك أن تحتاج فيها الى حكايةٍ أو مشاهدةٍ فتُتَّهم في ذلك، وإذا أردت أن يُقبَل قولك فصحح رأيك ولا تشعرنَّه بشيءٍ من الهوى ، فإن الرأي يقبله منك العدو والهوى يردُّه به عليك الوالد ، وأحق من احترست من أن يظن بك خلطَ الرأي بالهوى الولاةُ فإنها خديعة وخيانة وكفر .

إن ابتليت بصحبة والٍ لا يريد صلاح رعيةٍ فاعلم انك قد خُيرت بين خَلّتين [٣] ليس بينهما خيار : إما ميلك مع الوالي على الرعية وهذا هلاك الدين ، وإما الميل مع الوالي على الرعية وهذا هلاك الدنيا ولا حيلة لك إلا بالموت أو الهرب . واعلم أنّه لا ينبغي لك وإن كان الوالي غير مَرضيّ السيرة إذا علقت حبالك بحبله إلا المحافظة عليه إلا أن تجد إلى

---

(١) تمحّل الشيء : اشتد واحتال في طلبه .

(٢) الخانة : الخونة ، جمع خائن .

(٣) الخلة – بفتح الخاء وتشديد اللام : الخصلة ، والمقصود هنا : بين أمرين لا ثالث لهما .

الفراق الجميل سبيلاً . تبصَّر ما في الوالي من الأخلاق التي تحب والتي تكره ومـا هو عليـه من الرأي الذي يرضى له والذي لا يرضى ، ثم لا تكابره بالتحويل له عما يحب ويكره إلى ما تحب وتكره ، فـــان هذه رياضة صعبة تحمل على التنائي والقلى .

واعلم أنك قلما تقدر على رد رجل عن طريقتـــه التي هو عليها بالمكابرة والمناقضة وإن لم يجمح عن السلطة ولكنك تقدر أن تعينه على أحسن رأيه وتسبب له منه وتقويه فيه ، فإذا قويت منهُ المحاسن كانت هي التي تكفيك المساوي ، وإذا استحكمت منـهُ ناحية من الصواب كان ذلك هو الذي يبصره الخطـأ بالطف من تبصيرك وأعدل من حكمك في نفسه ، فإن الصواب يريد بعضهُ بعضاً ويدعو بعضه إلى بعض ، فإذا كانت لهُ مكانة اقتلع الخطأ، فاحفظ هذا الباب وأحكه .

ولا يكوننَّ طلبك ما عند الوالي بالمسالة ولا تستبطئـهُ وإن أبطأ ، ولكن اطلب ما قبله بالاستحقاق له ، واستأنِ وإن طالت الإناءَة، فإنك إذا استحققتهُ أتاك من غـير طلب وإن لم تستبطئهُ كان أعجل له . لا تخبرنَّ الوالي أنَّ لك عليه حقاً وأنك تعتد عليـه ببلاء ، وإن استطعت أن ينسى حقَّك وبلاءك فافعل . وليكن ما تذكره من ذلك تجديدك له النصيحة والاجتهاد وإلاَّ يزال ينظر منـــك إلى آخرٍ يذكّـرهُ أول بلائك . واعلم أن وليَّ الأمر إذا انقطع عنه الآخر نسي الأول وأن الكثير من أولئك أرحامهم مقطوعة وحبالهـــم مصرومة [1] إلا عمن

(١) صَرَم الحبل : قطعه ، وصرم الرجل : هجره وقاطعه ، والثوب المصروم : الثوب المتقبض . والمقصود هنا أنهم لا يصلون إلا من كان دائم الحضور والاستعداد للخدمة .

رضوا عنه وأغنى عنهم في يومهم وساعتهم . إياك أن يقع في قلبك تعتب على الوالي او استزادة له ، فإنه إن آنست أن يقع في قلبك بدا في وجهك إن كنت حليماً وبدا على لسانك إن كنت سفيهاً ، وان لم يزد ذلك على أن يظهر في وجهك لآمن الناس عندك فلا تأمننَّ أن يظهر ذلك للوالي ، فإن الناس اليه بعورات الاخوان سِراعٌ ، فإذا ظهر ذلك للوالي كان قلبه هو أسرع الى التعتب والتعزّز من قلبك فمحق ذلك حسناتك الماضية وأشرف بك على الهلاك، وصرتَ تعرف أمرك مستدبراً وتلتمس مرضاته مستصعباً .

اعلم أن أكثر الناس عدوًّا مجاهراً حاضراً جريئاً واشياً وزير السلطان ذو المكانة عنده ، لأنه منفوس[1] عليه بما يُنفس على صاحب السلطان ومحسود كما يحسد غير أنه يُجترأ عليه ولا يجترأ على ذلك ، لأن من حاسديه أحبّاء السلطان الذين يشاركونه في المداخل والمنازل ، وهم وغيرهم من عدوه الذين هم حضّاره وليسوا كعدو مَنْ فوقه النائي عنه المكتتم منه ، وهم لا ينقطع طمعهم من الظفر به فلا يغفلون عن نصب الحبائل ، فاعرف هذه الحال والبس لهؤلاء القوم الذين هم أعداؤك سلاح الصحة والاستقامة ولزوم الحُجّة فيما تسر وتعلن ، ثم روِح من قلبك كانه لا عدوٌ لك ولا حاسد . وإن ذكرك ذاكر عند ولي الأمر بسوء في وجهك أو في غيبك فلا يَرَيَنَّ منك الوليّ ولا غيره اختلاطاً لذلك ولا اغتياظاً ، ولا يقعنَّ ذلك موقع ما يُكرثك فإنه إن وقع منك ذلك

---

(١) نفس عليه نفساً ونفاسة : حسده ولم يره أهلا لما أصاب من خير أو نعمة .

الموقع أدخل عليك أموراً مشتبهة بالريب مذكّرة لما قال فيك العائب ، وإن اضطرك الأمر في ذلك الى الجـــواب فإياك وجواب الغضب والانتقام ، وعليك بجواب الحجة في حلم ووقـار ولا تشكنّ في أن القوة والغلبة للحليم أبداً .

لا تحضرن عند الوالي كلاماً لا يعني ولا يؤمَرُ بحضوره إلا لعناية به أو يكون جواباً بالشيء سُئلتَ عنـه ، ولا تعدنّ شتم الوالي شتماً ولا إغلاظه إغلاظاً فان ريح العزّ قد تبسط اللسان بالفاظ في غير سخط ولا باس . جانب المسخوط عليه والظنين به عند الولاة ولا يجمعنك وإياه مجلس ولا تظهرنّ له عذراً ولا تثنينّ عليهِ خيراً عند أحد من الناس ، فاذا رأيتهُ قد بلغ من الإعتاب [1] ما سخط عليه فيه مـا ترجو أن يلين له الوالي واستيقنت أنّ الوالي قد استيقن بمباعدتك إياه وشدّتك عليه ؛ فضع عذره عند الوالي واعمل في ارضائه عنه في رفق ولطف . ليعلم الوالي أنك لا تستنكف عن خدمته ولا تدع مع ذلك أن تقدم اليه القول عند بعض حالات رضاه وطيبِ نفسه في الاستعفاءِ من الأعمـــال التي يكرههـا ذو الدين وذو العرض وذو المروءة من ولاية القتل والعذاب وأشباه ذلك .

إذا أصبت الجاه والخاصة عند الملك فـلا يحدثنّ لك ذلك تغيراً على أحد من أهله وأعوانه ولا استغناءً عنهم ، فانك لا تدري متى ترى أدنى جفوةٍ فتذلّ لهم فيها ؛ وفي تلون الحال عند ذلك من العار ما فيه .

ليكن مما تحكم من أمرك أن لا تسارّ أحداً من الناس ولا تهمس اليه

---

(١) الإعتاب : الرجوع عن الإساءة إلى ما يرضي العاتب .

بشيء تخفيه عن السلطان فإن السّرار مما يخيل كل من رآه أنه المراد به فيكون ذلك في نفسه حَسيكةً ووَغْراً [١] وثقلاً .

لا تتهاونَنّ بإرسال الكَذِبَة عند الوالي أو غيره في الهزل فانها تسرع في رد الحق وإبطال الصدق مما تأتي بهِ . تنكبْ فيما بينك وبين الوالي خلقاً قد عرفناه في بعض الأعوان والأصحاب في ادعاءِ الرجل عندما يظهر من صاحبه من حسن أثر أو صواب رأي أنه هو عمل في ذلك وأشار به ، وإقراره بذلك اذا مدحه مادح ، بل وإن استطعت أن يعرف صاحبك أنك تنحله [٢] صواب رأيك فضلاً عن أنك تدّعي صوابه وتسند ذلك اليه وتزينه فافعل،فإن الذيأنت آخذ بذلك أكثر مما أنت معطٍ بأضعاف .

إذا سأل الوالي غيرك فلا تكونَنّ أنت المجيبَ عنه ، فان استلابك الكلام خفة بك واستخفاف منك بالمسؤُول والسائل . وما أنت قائل اذا قال لك السائلما إياك سألتُ ؛ أو قالك المسؤُول عند المسألة يعاد له بها دونك فأجب ؟ . واذا لم ينصب السائل في المسألة لرجل واحد وعمَّ بها جماعة من عنده فلا تبادر بالجواب ، ولا تسابق الجلساء ، ولا تواثب الكلام مواثبةً ، فان في ذلك مع شين التكلف والخفة أنّك اذا سبقت القوم الى الكلام صاروا لكلامك خصماء فيتعقبونه بالعيب والطعن ،

---

(١) حَسِكَ عليه : غضب عليه،والحُساكة أو الحَسَكة أو الحسيكة: الضغن والعداوة. والوغر : شدة الغيظ .

(٢) نحله الشيء : (بفتح النون والحاء واللام) : أعطاه الشيء من غير عوض بطيب نفس . والمقصود هنا أن تنسب إليه رأيك الصائب وتدّعيه له .

واذا أنت لم تعجل بالجواب وخليته للقوم اعترضت أقاويلهم على عينك ثم تدبرتها وفكرت فيما عندك ثم هيأت من تفكيرك ومحاسن مـا سمعت جواباً رضياً واستدبرت به أقاويلهم، حتى تصيخ اليك الأسماع ويهدأ عنك الخصوم ، وإن لم يبلغك الكـلام حتى تكتفي بغيرك أو ينقطع الحديث قبل ذلك فلا يكون من العيب عندك ولا من الغـبن في نفسك فوتُ ما فاتك من الجواب ، فان صيانة القول خير من سوء وضعـه ، وإن كلمة واحدة من الصواب تصيب موضعها خيرٌ من مئة كلمة أمثالها في غير فرصها ومواضيعها ، مع أن كلام العجلة والبدار موكل به الزلل وسوء التقدير وإن ظن صاحبه أن قد أتقن وأحكم .

واعلم أن هذه الأمور لا تُنال إلا برُحب الذرْع عند مـا قيل وما لم يُقَـل ، وقلة الاعظام لما ظهر من المروءَة أو لم يظهر ، وسخاوةِ النفس عن كثير من الصواب مخافةَ الخلاف والعجلة والحسد والمراء .

إذا كلمك الوالي فاصغ الى كلامه ، ولا تشغـل طرفك عنه بنظر ولا أطرافك بعمـل ولا قلبك بحديث نفسك ، واحذر هذا من نفسك وتعهد ما فيه .

❁

ارفق بنظرائك من وزراءِ السلطان ودخلائه واتخذهم إخواناً ولا تتخذهم أعداءَ ، ولا تنافسهم في الكلمة يتقربون بها والعمل يؤْمرون به فإنما أنت في ذلك أحد رجلين : إما أن يكون عندك فضلٌ على ما عند غيرك فسوف يبدو ذلك ويحتاج اليه ويُلتمس منك وأنت مجمل . وإما أن لا يكون ذلك عندك فـما أنت مصيب من حاجتك عندهم بمقاربتك

وملاينتك ، وما أنت واجد في موافقتك إياهم ولينك لهم من موافقتهم إياك ولينهم لك أفضلُ مما أنت مدركه بالمنافسة والمناظرة .

ولا تجترئنَّ على خلاف أصحابك عند الوالي ثقةً باعترافهم لك ومعرفتهم بفضل رأيك ، فإنَّا قد رأينا الناس يعرفون فضل الرجل وينقادون له ويتعلمون منه وهم أخلياءُ ، فاذا حضروا ذا السلطان لم يرض أحد منهم أن يقرَّ له وأن يكون له عليه في الرأي والعلم فضلٌ، فاجترأوا عليه بالخلاف والنقض فإن ناقضهم كان كأحدهم وليس بواجدٍ في كل حين سامعاً فهماً وقاضياً عدلاً ، وإن ترك مناقضتهم صار مغلوب الرأي مردود القول .

إذا أصبت عند الوالي لطفَ منزلة لغَنَاءٍ [1] يجده عندك أو هوى يكون له فيك ، فلا تطمحنَّ كل الطماح ولا تزيننَّ لك نفسك المزايلةَ له عن أليفهِ وموضع ثقته وسره قبلك بأن تقتلعه وتدخل دونه ، فإن هذه خلةٌ من خلال السفه قد يبتلى بها الحلماءُ عند الدنو من ذي السلطان، حتى يحدّث الرجل منهم نفسه أن يكون دون الأهل والولد لفضل يظنه في نفسه أو نقص يظنه بغيره ؛ ولكل رجل من الملوك أو ذي هيئة من السوقة أليفٌ وأنيسٌ قد عرف روحه واطلع على قلبه فليست عليه مؤُونة في تبذُّل يتبذل له عنده أو رأي يسترله منه أو سرٌ يُفشيه اليه، غير أن تلك الأنسة وذلك التبذل يستخرج من كل واحد منهما ما لم يكن ليظهر منه عند الانقباض والتشدُّد ، ولو التمس ملتمسٌ مثل ذلك عند من يستأنف ملاطفته ومؤانسته إن كان ذا فضل من الرأي والعلم لم يجد

(١) الغناء : الكفاية والمقدرة .

عنده مثل مـــا هو منتفع به ممن هو دون ذلك في الرأي ممن قد كفى مؤانسته ووقع على طباعـه ، لأن الأنسة رَوْح القلب والوحشة رَوْع عليه ولا يلتاط [١] بالقلوب إلاً ما لان عليهـــا ، ومن استقبل تأسيس الوحشة استقبل أمراً ذا مؤُونة [٢] .

فإذا كلفتك نفسك السموَّ الى منزلة من وصفت فاقدَعْها [٣] عن ذلك بمعرفة فضل الأليف والأنيس . وإذا حدثتك نفسك أو غيرك لعله من يكون له فضل في المروءَة أنّك أولى بالمنزلة عنـد الكبير من بعض دخلائه وثقاته فاذكر الذي عليه من حق أليفه وثقته وأنيسه في التكرمة ، والذي يعينه على ذلك من الرأي أنهُ يجد عنده من الإلف والأُنس ما ليس واجداً عند غيره . فليكن هذا مما تتحفظ فيه على نفسك وتعرف فيه عذر الرجل ورأيـه ، والرأي لنفسك في مثل ذلك إن أرادك مريد على الدخول دون أنيسك وأليفك وموضع ثقتك وجدك وهزلك .

❁

إعلم أنه تـكاد تكون لكل رجل غالبـــةُ حديث إما عن بلد من البلدان ، أو ضرب من ضروب العلم ، أو صنف من صنوف الناس ، أو وجه من وجوه الرأي ، وعندمـــا يعزم به الرجل من ذلك يبدو منه السخف ويُعرف منه الهوى ؛ فاجتنب ذلك في كل موطن ثم عنـد أولي

(١) يلصق بالقلوب ، ويقال : التاط الشيء بالقلب : أي حُبِّب إليـه وألصق به .

(٢) كلفة وجهد.

(٣) قدع : كبح ، اقدح نفسك : اكبح جماحها وكفّها .

الأمر خاصةً . لا تشكونَّ إلى وزراءِ السلطان ودخلائـه ما اطلعت عليه من رأي تكرهه له فانك لا تزيد على أن تُفطنهـــم لميله وتغريهم بتزيين ذلك له والميل عليك معه .

إعلم أن الرجل ذا الجاه عند الوالي والخاصة لا محـالة أنـّه يرى من الوالي ما يخالفه من الرأي في الناس والأمور ، فإذا آثر أن يكره كل ما يخالفه أو يتعض من الجفوة يراهـا في المجلس أو النبوة في الحاجة أو الرد للرأي أو الادناء لمن يهوى إدناءه والإقصاء لمن يكره إقصاءَه ، فاذا وقعت في قلبه الكراهية تغير لذلك وجهه ورأيـــه وكلامه حتى يبدو ذلك للوالي وغيره ، كان ذلك لفساد منزلته سبباً . فذلل نفسك باحتمال ما خالفك من رأي الولاة وقررها بأنهم انما كانوا أولياءَك لتتبعهـم في آرائهم وأهوائهم ولا تكلفهم اتباعك وتغضب من خلافهم إياك .

إعلم أن الملوك يقبلون من وزرائهم التبخيل ويعدونه منهـم مشفقة ونظراً ، ويحمدونهم عليه وإن كانوا أجواداً ، فإن كنت مبخلاً غششت صاحبك بفساد مروءتـــه ، وإن كنت مسخيّاً لم تامن إضرار ذلك بمنزلتك عنده ، فالرأي لك تصحيح النصيحة على وجهها ، والتماس المخرج فيما تترك من تبخيل صاحبك بأن لا يعرف منك فيما تدعوه اليه ميلاً الى شيء من هواك، ولا طلباً لغير ما ترجو أن يزينه وينفعه .

لا تكونَنَّ صحبتُك للملوك إلا بعـــد رياضةٍ [1] منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك وموافقتهـم فيما خالفك وتقدير الأمور على

---

(١) راض (يروض روضاً ورياضاً ورياضةً) : ذلـل النفس وعوّدهـا الطاعة والاحتمال .

ميلهم دون ميلك ، وعلى أن لا تكتمهم سرّك ولا تستطلع ما كتموه وتخفي ما أطلعوك عليه من الناس كلهم حتى تحمي نفسك الحديث به ، وعلى الاجتهاد في رضاهم والتلطف لحاجاتهم والتثبت لحجتهم والتصديق لمقالتهم والتزيين لرأيهم ، وعلى قلة الاستقباح لما فعلوا إذا أساءُوا وترك الاستحسان لما فعلوا إذا أحسنوا ، وكثرة النشر لمحاسنهم وحسن الستر لمساويهم ، والمقاربة لمن قاربوا وإن كان بعيداً والمباعدة لمن باعدوا وإن كانوا أقرباء ، والاهتمام بأمرهم وإن لم يهتموا به والحفظ له وإن ضيعوه والذكر له وإن نسوه،والتخفيف عنهم لمؤُونتك والاحتمال لهم كل مؤُونة والرضى عنهم بالعفو وقلة الرضى من نفسك لهم بالمجهود ، فان وجدت عنهم وعن صحبتهم غنىً فاغنِ عن ذلك نفسك واعتزله جهدك ، فان من يأخذ عملهم يحول بينه وبين لذة الدنيا وعمل الآخرة ، ومن لا يأخذ بحقه يحتمل الفضيحة في الدنيا والوزْر في الآخرة . إنك لا تأمن أنفهم إن أعلمتهم ولا عقوبتهم إن كتمتهم ، ولا تأمن غضبهم إن صدقتهم ولا تأمن سلوتهم إن حدثتهم . إن لزمتهم لم تأمن تبرُّمهم بك [١] وإن زايلتهم لم تأمن عقابهم . إنك إن تستأمرهم حملت المؤُونة عليهم وان قطعت الأمر دونهم لم تأمن فيه مخالفتهم . إنهم إن سخطوا عليك أهلكوك وإن رضوا عنك تكلفت من رضاهم ما لا تطيق ، فان كنت حافظاً إن بلوك جلداً إن قربوك أميناً إن ائتمنوك تشكرهم ولا تكلفهم الشكر ، بصيراً باهوائهم مؤْثراً لمنافعهم ، ذليلاً إن ظلموك ، راضياً إن أسخطوك ؛ وإلا فالبعد منهم كل البعد والحذر كل الحذر ..

---

(١) تضجرهم ، وضيقهم بك ، ومللهم منك .

الأصدقاء والمعارف

إبذل لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك رفدك ومحضرك[1] وللعامة بشرك وتحننك، ولعدوك عدلك، واضنن بدينك وعرضك عن كل أحدٍ إن سمعت من صاحبك كلاماً أو رأياً يعجبك فلا تنتحله تزيناً به عند الناس واكتف من التزين بأن تجتني الصواب إذا سمعته وتنسبه الى صاحبه. واعلم أن انتحالك ذاك سخطة لصاحبك وأن فيه مع ذلك عاراً، فان بلغ ذلك بك أن تشير برأي الرجل وتتكلم بكلامه وهو يسمع جمعتَ مع الظلم قلة الحيـــاء، وهذا من سوءِ الأدب الفاشي في الناس. ومن تمام حسن الخلق والأدب أن تسخو نفسك لأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك، وتنسب اليه رأيه وكلامه وتزينه مع ذلك ما استطعت.

لا يكوننَّ من خلقك أن تبتدىءَ حديثـــاً ثم تقطعه وتقول سوف كأنك روَّأْت[2] فيه بعد ابتدائه وليكن ترويك فيه قبل التفوّه، فان احتجان[3] الحديث بعد افتتاحه سخف. اخزن عقلك وكلامك إلا عند إصابة الموضع فإنه ليس في كل حين يحسن كل الصواب، وإنما تمام إصابة الرأي والقول بإصابة الموضع، فإن أخطاك ذلك أدخلت المحنة على عملك حتى تأتي به إن أتيت به في غير موضعـــه وهو لا بهاء ولا

(١) الرِّفد: العطاء والصلة والعون والدعم - وحُسْن المحضر.

(٢) روَّأ في الأمر تروئةً وترويئاً: نظر فيه وتعقبه ولم يعجل بجواب، وهي الرويئة وقيل الروية بغير همز وهو الأشهر.

(٣) احتجنه: حجزه أو اختزنه أو أمسكه ومنعه.

طلاوة له . لتعرف العلماء حين تجالسهم أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول .

إن آثرت أن تفاخر أحداً ممن تستأنس اليه في لهو الحديث فاجعل غاية ذلك الجد ولا تعدونّ أن تتكلم فيه بما كان هزلاً فإذا بلغ الجد أو قاربه فَدَعْه ولا تخلطنّ بالجد هزلاً ولا بالهزل جداً ، فانك ان خلطت بالجد هزلاً هجّنته[1] ، وإن خلطت بالهزل جداً كدّرته . غير أني قد علمت موطناً واحداً فان قدرت أن تستقبل فيه الجد بالهزل أصبتَ الرأي وظهرتَ على الأقران وذلك أن يتوردك متوردٌ بالسفه والغضب فتجيبه إجابة الهازل المداعب برحب من الذرع وطلاقة من الوجه وثبات من المنطق .

إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبنك ذلك ، فانما هو أحد رجلين : إن كان رجلاً من إخوان الثقة فانفع مواطنه لك أقربها من عدوك لشرٍّ يكفيه عنك وعَوْرة يسترها منك وغائبة يطلع عليها لك ، فاما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك . وإن كان رجلاً من غير خاصة اخوانك فبأي حق تقطعه عن الناس وتكلفه أن لا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى ؟ تحفّظ في مجلسك وكلامك من التطاول على الأصحاب ، وطِبْ نفساً عن كثير مما يعرض لك فيه صواب القول والرأي مداراةً لئلا يظن أصحابك أن ما بك التطاولُ عليهم .

إذا أقبل إليك مقبل بوده فسرّك ألا يدبر عنك فلا تنعم[2] الإقبال

(١) هجّن الأمر : قبّحه وعابه – جعله (هجيناً) .
(٢) لا تزد ولا تبالغ .

عليه والتفتح له فإن الانسان طُبع على ضرائب لؤْم فمن شأنه أن يرحل عمّن لصق به ويلصق بمن رحل عنه . لا تكثرنّ ادعاء العلم في كل ما يعرض فإنك من ذلك بين فضيحتين : إمـــا أن ينازعوك فيما ادعيت فيُهجم منك على الجهالة والصَّلف [1] ، وإما ألاّ ينازعوك ويخلوا الأمور في يديك فينكشف منك التصنع والمعجزة .

استحي الحياء كله من أن تخبر صاحبك أنك عالم وأنـــه جاهل مصرحاً أو معرّضاً ، وان استطلت على الأكفاء فلا تثقن منهم بالصفاء . إن آنست من نفسك فضلاً فتحرج [2] أن تذكره أو تبديه فاعلم أن ظهوره منك بذلك الوجه يقرر لك في قلوب الناس من العيب أكثر مما يقدر الك من الفضل ، واعلم أنك إن صبرت ولم تعجل ظهر ذلك منك بالوجه الجميل المعروف . ولا يخفينّ عليك أنّ حرص الرجـــل على إظهار مـا عنده وقلةَ وَقـاره في ذلك باب من البخل واللؤْم ، وأن من خير الأعوان على ذلك السخـاء والتكرّم . إن أحببت أن تلبس ثوب الوقار والجمال وتتحلى بحلية المودة عند العامة وتسلك الجدَدَ [3] الذي لا جُبَار [4] فيه ولا عثار فكن عالماً كجاهل وناطقاً كعَيّ . فأما العلم فيرشدك، وأما قلة ادعائه فينفي عنك الحسد ، وأما المنطق اذا احتجت اليه فسيُبلغ حاجتك ، وأما الصمت فيكسبك المحبـــة والوقار ، وإذا رأيت رجلاً يحدث حديثاً قد علمته أو يخبر خبراً قد سمعته فلا تشاركه

(١) الصلف: تجاوز القدر في البراعة والظرف وادعاء التكبر .
(٢) تضيق .
(٣) ما استوى من الأرض وفي المثل « من سلك الجدد أمِنَ العثار » .
(٤) هلاك . يقال : ذهب دمهُ جُباراً أي ذهب هدراً .
— في بعض النسخ القديمة «خبار» وهي الأرض الرخوة بهـــا أحجار . ويستقيم المعنى على الجهتين .

فيه وتتعقبه عليه حرصاً على أن يعلم الناس أنك قد علمته فإن في ذلك خفة وشُحّا وسوء أدب وسخفاً . ليعرف اخوانك والعامة أنك إن استطعت أن تكون إلى أن تفعل ما لا تقول أقربَ منك الى أن تقول ما لا تفعل فَعَلْت ، فان فضل القول على الفعل عارٌ وهُجنةٌ وفضل الفعل على القول زينة ، وأنت حقيق فيما وعدت من نفسك أو أخبرت صاحبك عنه أن تحتجن بعض ما في نفسك إعداداً لفضل الفعل على القول ، وتحرّزاً بذلك عن تقصير فعـــلٍ إن قصَّر وقلما يكون إلا مقصراً .

احفظ قول الحكيم الذي قال : لتكن غايتك فيما بينك وبين عدوك العدل ، وفيما بينك وبين صديقك الرضى . وذلك أنَّ العدو خصم تضربه بالحجة وتغلبه بالحكام وأنّ الصديق ليس بينك وبينه قاضٍ فانما حكمه رضاه .

اجعل عامةَ تشبثك في مؤَاخاة من تؤاخي ومواصلة من تواصل ووطّن نفسك على أنه لا سبيل لك إلى قطيعة أخيك وإن ظهر الك منه ما تكره ، فانه ليس كالمرأة التي تطلقهـــا اذا شئت ، ولكنه عرضك ومروءَتك فانما مروءتك الرجل إخوانه وأخدانه،فانعثر الناس علىأنك قطعت رجلاً من إخوانك وإن كنت معذِراً نزل ذلك عند أكثرهم بمنزلة الخيانة للاخاءِ والملال ، وإن أنت صبرت مع ذلك على مقارّته على غير الرضى عاد ذلك الى العيب والنقيصة ، فالاتئاد الاتئاد والتثبت التثبت .

إذا نظرت في حال من ترتئيه لاخائك فان كان من إخوان الدين فليكن فقيهاً ليس بمرآءٍ ولا حريص ، وإن كان من إخوان الدنيا فليكن

حرًّا ليس بجاهل ولا كذاب ولا شرير ولا مشنوع ، فان الجاهل أهلٌ لأن يهرب منه أبواه ، وإن الكذاب لا يكون أخاً صادقاً لأن الكذب الذي يجري على لسانه إنما هو من فضول كذب قلبه ، وانما سمي الصديق من الصدق وقد يُتَّهم صدق القلب وإن صدق اللسان، فكيف اذا ظهر الكذب على اللسان، وإن الشرير يكسبك العدو ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة ، وإن المشنوع شانع صاحبه .

تحرَّز من سكر السلطة وسكر العلم وسكر المنزلة وسكر الشباب ، فانه ليس من هذا شيء إلا وهو ريح جنة تسلب العقل وتُذهب الوقار وتصرف القلب والسمع والبصر واللسان عن المنافع .

اعلم أن انقباضك عن الناس يكسبك العداوة وأن تفرُّشك[1] لهم يكسبك صديق السوء ، وفُسولةُ[2] الاصدقاءِ أضرُّ من بغض الاعداء ، فانك إن واصلت صديق السوء أعيتك جرائره وإن قطعته شانك اسم القطيعة وألزمك ذلك من يرفع عيبك ولا ينشر عذرك ، فان المعايب تنمى والمعاذير لا تنمى[3] . البس للناس لباسين ليس للعاقل بُدٌّ منهما ولا عيش ولا مروءَة إلا بهما : لباس انقباض واحتجاز تلبسه للعامة فلا تُلفيَنَّ إلا متحفظـاً متشدّداً متحرزاً مستعدا ، ولباس انبساط واستئناس تلبسه للخاصة من الثقات فتتَلَقَّاهم ببنات صدرك وتفضي

(١) انبساطك ، يعني مبالغتك في الاختلاط بهم والتباسط معهم .

(٢) الفِسْل : بكسر الفاء : الأحمـق - وبفتحها : الرذل الرديء . والفسولة : النذالة والغدر .

(٣) نمى الحديث ارتفع وأنماه أذاعه على وجه النميمة .

اليهم بموضوع حديثك وتضع عنك مؤونة الحذر والتحفظ فيما بينك وبينهم ، وأهل هذه الطبقة الذين هم أهلها قليلٌ لأن ذا الرأي لا يُدخِل أحداً من نفسه هذا المدخل إلا بعد الاختبار والسَّبْر [1] والثقة بصدق النصيحة ووفاءِ العقل .

اعلم ان لسانك أداة مغلَّبة يتغالب عليه عقلك وغضبك وهواك وجهلك فكلٌّ غالبٍ عليه مستمتِعٌ وصارفه في محبته ، فاذا غلب عليه عقلك فهو لك ، واذا غلب عليــــه شيء من أشباه ما سميتُ لك فهو لعدوك ، فان استطعت أن تحتفظ به فلا يكون إلا لك ولا يستولي عليه أو يشاركك عدوك فيه فافعل .

اذا نابت أخاك إحدى النوائب من زوال نعمة أو نزول بلية فاعلم انك قد ابتليت معه إما بالمؤاساة فتشاركه في البلية،وإما بالخذلان فتحتمل العار ، فالتمس المخرج عند اشتباه ذلك وآثر مروءتك على ما سواها ، فان نزلت الجائحة التي تأبى نفسك مشاركة أخيك فيها فاجمِلْ [2] فلعل الإجمال يسعك لقلته في الناس . إذا أصاب أخاك فضل فانه ليس في دنوك منه وابتغائك مودته وتواضعك له مذلة فاغتنم ذلك واعمل فيه .

---

(١) التجربة أو استخراج كنه الأمر، وفي حديث الغـار قال أبو بكر : «لا تدخله حتى أسبره قبلك » . ويستعمل السبر في الجراحات بمعنى قياسها وتقدير غورها .

(٢) اصبر واكتم .

أكرم الخصال

إذا كانت الك عند أحد صنيعةٌ أو كان لك عليه طول فالتمس إحياء ذلك بإماتته وتعظيمه بالتصغير له ، ولا تقتصرنَّ في قلة المنّ على ان تقول لا أذكره ولا أصغي بسمعي إلى من يذكره ، فإن هذا قد يستحيي منه بعض من لا يوصف بعقل ولا كرم؛ ولكن احذر ان يكون في مجالستك إياه وما تكلمه به أو تستعينه عليه أو تجاريه فيه شيءٌ من الاستطالة فان الاستطالة تهدم الصنيعة وتكدّر المعروف .

احترس من سورة الغضب وسورة الحمية وسورة الحقد وسورة الجهل [١] واعدد لكل شيء من ذلك عدةً تجاهده بها من الحلم والتفكر والروية وذكر العاقبة وطلب الفضيلة ، واعلم أنك لا تصيب الغلبَة إلا بالجهاد، وان قلة الإعداد لموافقة الطبائع المتطلّعة هو الاستسلام ، وأنه ليس أحد إلا فيه من كل طبيعة سوءُ غريزةٍ ، وإنما التفاضل بين الناس في مغالبة طبائع السوء . فأما أن يسلم أحد من أن تكون فيه تلك الغرائز فليس في ذلك مطمع ؛ إلا أن الرجل القويّ إذا كابرها بالقمع لها كلها كلما تطلعت لم يلبث أن يميتها حتى كأنها ليست فيه ، وهي في ذلك كامنة كمون النار في العود فاذا وجدت قادحاً من غير علة أو غفلة استورت كما تستوري [٢] عند القدح ثم لا يبدأ ضرها إلا بصاحبها كما لا تبدأ النار إلا بعودها التي كانت فيه .

---

(١) سورة الأمر (بفتح السين) : حدته وشدته .

(٢) استورى الزند : أخرج ناره . واستورت النار : اتقدت .

والمعنى أن طبائع السوء موجودة غريزياً عند كل البشر، شأنها=

ذلل نفسك بالصبر على جار السوء وعشير السوء وجليس السوء فان ذلك ما لا يكاد يُخطئك ، فان الصبر صبران : صبر الرجل على ما يكره، وصبره عما يحب . فالصبر على المكروه أكثرهما وأشبههما أن يكون صاحبه مضطرّاً . واعلم أن اللئام أصبر أجساداً والكرام أصبر نفوساً، وليس الصبر الممدوح أن يكون جلد الرجل وَقاحاً أو رجله قوية على المشي أو يده قوية على العمل فإنما هـذا من صفات الحمير ، ولكن أن يكون للنفس غَلوباً وللأمور محتمـلاً وفي الضر متجمِّلاً ولنفسه عند الرأي والحفاظ مرتبطاً وللحزم مؤثِراً وللهوى تاركاً وللمشقة التي يرجو عاقبتها مستخفاً وعلى مجاهدة الأهواء والشهوات مواظباً ولبصره بعزمه منفذاً .

حبِّب إلى نفسك العلم حتى تألفه وتلزمه ويكون هو لهوك ولذتك وسلوتك وبلغتك . واعلم ان العلم علمان : علم للمنافع ، وعلم لتزكية العقـل ، وأفشى العلمين وأحداهما أن ينشط له صاحبه من غير أن يُحرَّض عليه علمُ المنافـع . وللعلم الذي هو ذكاء العقول وصقالها وجلاؤهـا فضيلة منزلة عند أهل الفضل في الألباب . عوِّد نفسك السخاء واعلم انهما سخاءان : سخاوةُ نفس الرجل بما في يديه ، وسخاوته

= شأن طبائع الخير ، ويتمكن الفضلاء أقوياء النفوس من السيطرة على طبائع السوء وقمعها حتى ليظهر أنهم قد تخلصوا منها، وحتى لا يرى الناس منهم إلا طبائع الخير . ولكن طبائع السوء وإن تم قمعها والسيطرة عليها لا تنمحي تماماً من النفس البشرية ، بل تبقى غريزة كامنة حتى تعود فتظهر عندما يعجز أو يغفل صاحبها عن كبحها ، ويصيبه ضررها أول ما يصيب .

عما في أيدي الناس ، وسخاوة نفس الرجل بما في يديه أكثرهما وأقربهما من أن تدخل فيه المفاخرة ، وتركه ما في أيدي الناس أمحض في التكرم وأنزه من الدنس فان هو جمعهما فبذل وعفَّ فقد استكمل الجود والكرم .

ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألاّ تكون حسوداً فان الحسد خلق لئيم ومن لؤمه أنه يوكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء الخلطاء ، فليكن ما تقابل به الحسد أنْ تعلم أنَّ خير ما تكون حين تكون مع من هو خيرٌ منك ، وأنَّ غنماً لك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك في العلم فتقبسَ من علمه ، وأفضل منك في القوة فيدفع عنك بقوته ، وأفضل منك في المال فتفيد من ماله ، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجاهه ، وأفضل منك في الدين فتزداد صلاحاً بصلاحه . ليكن ما تنظر فيه من أمر عدوك وحاسدك أن تعلم أنه لا ينفعك أن تخبر عدوك أنك له عدوٌّ فتنذره نفسك وتؤذنه [1] بحربك قبل الإعداد والفرصة فتحمله على التسلح لك وتوقد ناره عليك . .

اعلم أن أعظم خطرك أن تُري عدوك أنك لا تتخذه عدوّاً فان ذلك غِرَّةٌ له وسبيل لك إلى القدرة عليه فإن أنت قدرت فاستطعت اغتفاراً لعداوته عن أن تكافىءَ بها فهنالك استكملت عظيم الخطر ، وإن كنت مكافئاً بالعداوة والضرر فاياك أن تكافىءَ عداوة السر بعداوة العلانية وعداوة الخاصة بعداوة العامة ، فان ذلك هو الظلم

(١) أذن بالشيء علم ، ومنه قوله تعالى « فأذَنُوا بحربٍ من الله ورسوله » .

والعار . واعلم مع ذلك انهُ ليس كل العداوة والضرر يكافأ بمثله كالخيانة لا تكافأ بالخيانة والسرقة لا تكافأ بالسرقة ، ومن الحيلة في أمرك مع عدوك أن تصادق أصدقاءه وتؤاخي إخوانه فتدخل بينه وبينهم في سبيل الشقاق والتجافي ، فانه ليس رجل ذو طُرُقٍ [1] يمتنع من مؤاخاتك إذا التمست ذلك منه وإن كان اخوانُ عدوك غيرَ ذوي طرق فلا عدو لك .

لا تدع مع السكوت عن شتم عدوك إحصاءَ معايبه ومثالبه واتباع عوراته حتى لا يشذ من ذلك صغير ولا كبير من غير أن تشيع عليه فيتقيك به ويستعد له أو تذكره في غير موضعه ، فتكون كمستعرض الهواء بنبله قبل إمكان الرمي . لا تتخذ اللعن والشتم على عدوك سلاحاً فانه لا يجرح في نفس ولا في مال ولا دين ولا منزلة .

إن أردت أن تكون داهياً فلا تحبنَّ أن تسمى داهياً فانه من عُرف بالدهاء خاتل علانية وحذره الناس حتى يمتنع منه الضعيف ، وإنَّ من أرب الأريب دفنَ أربه ما استطاع حتى يُعرَف بالمسامحة في الخليقة والطريقة ، ومن أربه ألا يؤارب العاقل المستقيم له الذي يطلع على غامض اربه فيمقته عليه .

إن أردت السلامة فأشعر قلبك الهيبة للأمور من غير أن تظهر منك الهيبة فيفطنَ الناس لهيبتك ويجرّئهم عليك ويدعو ذلك اليك منهم كل ما تهاب ، فاشعَبْ لمداراة ذلك من كتمان المهابة وإظهار الجراءة والتهاون طائفةً من رأيك . وإن ابتليتَ بمجازاة عدو

(١) أي صاحب مداخلات وعلاقات متعددة يعرف كيف يسخرها لقضاء مصالحه ومآربه .

مخالف فالزم هذه الطريقة التي وصفت لك من استشعار الهيبة وإظهار الجراءة والتهاون وعليك بالحذر في أمرك والجراءة في قلبك حتى تملأ قلبك جراءة ويستفرغ عملك الحذر .

إن عدوك من تعمل في هلاكــه ومنهم من تعمل في البعد عنه فاعرفهم على منازلهم ، ومِنْ أقوى القوة على عـدوك وأعز أنصارك في الغلبة أن تحصي على نفسك العيوب والعورات كلما أحصيتها على عدوك وتنظر عند كل عيب تراه أو تسمعه لأحد من الناس هل قارفت مثله أو مُشَاكله؟ فان كنت قارفت منه شيئاً فأحصِه فيما تحصي على نفسك، حتى إذا أحصيت ذلك كله فكابر عدوك باصلاح عيوبــك وتحصين عوراتك وإحرار مقاتلك وخذ نفسك بذلك ممسياً مصبحاً فإذا آنست منها دفعاً لذلك أو تهاوناً به فاعدد نفسك عاجزاً ضائعاً جانياً معوِراً [1] لعدوك ممكناً له من رميك ، وإن حصل من عيوبك بعض ما لا تقدر على إصلاحه من أمرٍ قد مضى يعيبك عند الناس ولا تراه أنت عيباً فاحفظ ذلك وما عسى أن يقول فيه قائل من حسبك أو مثالب آبائك أو عيب إخوانك ، ثم اجعل ذلك كله نصب عينيك واعلم أن عدوك مريدك بذلك فلا تغفل عن التهيؤ له والاعداد لقوتك وحجتك وحيلتك فيـه سرًّا وعلانية ، فأما الباطل فلا تروِّعَنَّ به قلبك ولا تستعدنَّ له ولا تشتغلنَّ به فانه لا يهولك ما لم يقع وإذا وقع اضمحل .

اعلم انه قلما بُدِه [2] أحد بشيءٍ يعرفه من نفسه وقد كان يطمع في

---

(١) من أعورَ الفارس إذا بدا فيه موضع خلل يعرّضه للطعن .
(٢) فوجىءَ ، بُوغت .

إخفائه عن الناس فيعيّره به معيّر عند السلطان أو غيره إلا كاد يشهد به عليه وجهه وعيناه ولسانه ، للذي يبدو منه عند ذلك والذي يكون من انكساره وفتوره عند تلك البداهة ، فاحذر هذه وتصنّع لها وخذ أهبتك لبغتاتها .

واعلم أن من أوقع الأمور في الدين وأنهكها للجسد وأتلفها للمال وأضرها بالعقل وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرامَ بالنساء ، ومن البلاءِ على المغرم بهنّ انه لا ينفك يأجم [1] ما عنده وتطمح عيناه الى ما ليس عنده منهنّ ، وإنما النساء أشباهٌ وما يرى في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهنّ على معروفاتهنّ باطلٌ وخدعةٌ ، بل كثير مما يرغب عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق اليه نفسه ، وإنما المترغّب عما في رحله منهنّ الى ما في رحال الناس كالمترغب عن طعام بيته الى ما في بيوت الناس ، بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام وما في رحال الناس من الأطعمة أشد تفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم من النساء . ومن العجب أن الرجل الذي لا باس في لبه يرى المرأة من بعيدٍ مُتَلَفِّفَةً في ثيابها فيصوّرُ لها في قلبه الحسن والجمال حتى تعلقَ بها نفسه من غير رؤيةٍ ولا خبر مخبر ، ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأدَمِّ الدمامة فلا يعظه ذلك عن أمثالها ولا يزال مشغوفاً بما لم يذق حتى لو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأناً غير شأن ما ذاق !. وهذا هو

(١) أجم الطعام وغيره: كرهه ومله – يقصد أنه يزهد ما عنده ويطمع فيما عند غيره .

الحمق والشقاء. ومن لم يحمِ نفسه ويظلِفها[1] ويجلِها عن الطعام والشراب والنساء في بعض ساعات شهوته وقدرته كان أيسر ما يصيبه من وبال أمره انقطاع تلك اللذات عنه بخمود نار شهوته وضعف عوامل جسده، وقلّ من تجد إلا مخادعاً لنفسه في أمر جسده عند الطعام والشراب والحمية والدواء وفي أمر مروءته عند الاهواء والشهوات وفي أمر دينه عند الريبة والشبهة والطمع .

إن استطعت أن تنزل نفسك دون غايتك في مجلس ومقام ومقالٍ ورأي وفعلٍ فافعل ، فان رفع الناس إياك فوق المنزلة التي تحط اليها نفسك وتقريبهم اياك في المجلس الذي تباعدت عنه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تعظم وتزيينهم من كلامك ورأيك ما لم تزين هو الجمال .

لا يعجبنك العالم ما لم يكن عالما بمواضع ما يعلم .إن غُلبتَ على الكلام وقتاً فلا تغلبنّ على السكوت فإنه لعله يكون المراء واعرفه ولا يمنعك حذر المراء من حسن المناظرة والمجادلة . واعلم أن المماري هو الذي لا يحب أن يتعلم ولا يتعلم منه ، فان زعم زاعم أنه إنما يجادل في الباطل عن الحق فان المجادل وان كان ثابت الحجة ظاهر البينة فانه يخاصم الى غير قاضٍ وإنما قاضيه الذي لا يعدو بالخصومة الا اليه عدْلُ صاحبه وعقله ، فان آنس أو رجا من صاحبه عدلاً يقضي به على نفسه فقد أصاب وجه أمره وإن تكلم على غير ذلك كان ممارياً .

إن استطعت ألاّ تخبر أخاك عن ذات نفسك بشيء إلا وأنت محتجنٌ

---

(١) ظلف نفسه عن الشيء : منعها أن تأتيه .

عنه بعض ذلك التماساً لفضل الفعل على القول واستعداداً لتقصير فعل إن قصر فافعل ، واعلم أن فضل الفعل على القول زينة ، وفضل القول على الفعل هجنة ، وأن احكام هذه الخَلَّة من غرائب الخلال .

إذا تراكمت الأعمال عليك فلا تلتمس الرَوْح في مدافعتها بالرَوَغان[1] منها ، فانه لا راحة لك إلا في إصدارها ، وإنَّ الصبر عليها هو يخففها وإن الضجر منها هو يراكمها عليك ، فتعهَّدْ من ذلك في نفسك خصلةً قد رأيتها تعتري بعض أصحاب الأعمال أن الرجل يكون في أمر من أمره فيرد عليه شغل آخر ويأتيه شاغل من الناس يكره تأخيره فيكدِّرُ ذلك بنفسه تكديراً يفسد ما كان فيه وما ورد عليه حتى لا يحكِمَ واحداً منهما ، فإن ورد عليك مثل ذلك فليكن معك رأيك الذي تختار به الأمور ثم اختر أولى الأمرين بشغلك فاشتغل به حتى تفرغ منه ، ولا يعظمنَّ عليك فوتُ ما فات وتأخير ما تأخر إذا أعملت الرأي معمله وجعلت شغلك في حقه .

اجعل لنفسك في كل شيء غاية ترجو القوة والتمام عليها ، واعلم أنك إن جاوزت الغاية في العبادة صرت الى التقصير ، وإن جاوزتها في تكلف رضى الناس والخفة معهم في حاجاتهم كنت المصنَّع المحشود[2] .

---

(١) الروح : الراحة — راغ روغاً وروغاناً : حاد . — يقصد أن المرء عند تراكم الأعمال عليه ، لا يجدر به أن يتهرب ويراوغ في أدائها وتنفيذها ملتمساً الراحة ، بل يجب عليه الصبر والمثابرة .

(٢) أصنع الرجل : اذا أعان آخر . وأما المحشود فهو الرجل المحفوف=

إعلم أن بعض العطية لؤم وبعض البيان عيّ وبعض العلم جهل ، فإن استطعت أن لا يكون عطاؤك جوراً ولا بيانك هذراً ولا علمك جهلاً فافعل .

إعلم أنهُ ستمر عليك أحاديث تعجبك إما مليحة وإما رائعة ، فإذا أعجبتك كنت خليقاً بأن تحفظها فان الحفظ موكل بما راع وستحرص على أن تُعجب منها الأقوام فانّ الحرص على ذلك التعجب من شأن الناس ، وليس كل معجبٍ الك معجباً لغيرك ، وإذا نشرْت ذلك مرة أو مرتين فلم تره وقع من السامعين موقعه منك فازدجرْ عن العود فان العجب من غير عجيب سخف شديد ، وقد رأينا من الناس من يعلق الشيء ولا يُقلع عن الحديث به ولا يمنعه قلة قبول أصحابه له من أن يعود ثم يعود . إياك والأخبارَ الرائعة وتحفظك منها فان الإنسان من شانه الحرص على الأخبار لا سيما ما راع منها فأكثر الناس من يُحدّث بما سمع ولا يبالي ممن سمع وذلك مَفْسَدَةٌ للصدق ومَزْرَاةٌ بالرأي ، فان استطعت ألاّ تخبر بشيء إلا وأنت به مصدق وألاّ يكون تصديقك إلا ببرهان فافعل .

ولا تقل كما يقول السفهاء : أُخبر بما سمعت . فإن الكذب أكثر ما أنت سامع وإن السفهاء أكثر من هو قائل ، وانك إن صرت

=بالجماعات يقال محفود محشود، أي الذي يخف الناس لخدمته. يقصد أن تكلف إرضاء الناس ومعونتهم يجمع حوله طلاب الحاجات حتى لربما يعجز عن تلبية حاجاتهم واعانتهم وإرضائهم .

للأحاديث واعياً وحاملاً كان ما تعي وتحمل عن العامة أكثر مما يخترع المخترع بأضعاف .

انظر مَنْ صاحبتَ من النـاس من ذي فضل عليك بسلطان ومنزلة ومن دون ذلك من الخلصاءِ والأكفاءِ والاخوان فوطن نفسك في صحبته على أن تقبل منه العفو [١] وتسخر نفسك عما اعتاصَ [٢] مما قِبَله غير معاتب ولا مستبطيءٌ ولا مستزيد ، فإن المعاتبة مقطعةٌ للودّ ، وإن الاستزادة من الجشع ، وإن الرضى بالعفو والمسامحة في الخلق مقرب لك كل ما تتوق اليه نفسك مع بقاءِ العرض والمودة والمروة .

إعلم أنك ستُبتلى من أقوامٍ بسفـه ، وأن سفه السفيه سيطلع لك منه فان عارضته أو كافأته بالسفه فكانك قد رضيت ما أتى به فاجتنب أن تحتذي مثاله، فان كان ذلك عندك مذموماً فحقق ذمّك إياه بترك معارضته فأما أن تذمه وتمتثله [٣] فليس ذلك لك . لا تصاحبنَّ أحداً وإن إستأنست به أخا قرابةٍ أو أخا مودة ولا والداً ولا ولداً إلا بمروة فان كثيراً من أهل المروة قد يحملهم الاسترسال أو البذل على ان يصحبوا كثيراً من الخلصاءِ بالادلال والتهاون ، ومن فقد من صاحبه صحبة المروة ووقارها أحدث له في قلبه رقة شأنٍ وخفة منزلة . لا تلتمس غلبة صاحبك والظفر عليه بكل كلمة ورأي ولا تجترئنَّ على تقريعه وتبكيته بظفرك إذا استبان وحجتك إذا وضحت ، فان أقواماً يحملهم

---

(١) العفو : الفضل أو المعروف .
(٢) اعتاص الأمر عليه: اشتد وامتنع وصعب عليه، ولم يهتد إلى صوابه.
(٣) تمتثله : تتبع طريقته .

حب الغلبة وسفه الرأي في ذلك على أن يتعقَّبوا الكلمة بعد ما تنسى فيلتمسوا فيها الحجة ثم يستطيلوا بها على الأصحاب ، وذلك ضعف في العقل ولؤْم في الأخلاق .

لا يعجبنك إكرام من يكرمك لمنزلة أو سلطان فإن السلطة أوشك أمور الدنيـــا زوالاً ، ولا يعجبنك إكرامهم إياك للنسب فان الانساب أقل مناقب الخير غناءً عن أهلها في الدين والدنيـا ، ولكن إذا أُكرمتَ على دين أو مروَءَة فذلك فليعجبك فان المروَءَة لا تزايلك في الدنيا والدين لا يزايلك في الآخرة .

اعلم ان الجبن مقتلة وأن الحرص محرمة ، فانظر فيما رأيت أو سمعت : أمَّنْ قُتِلَ في القتال مقبـــلاً أكثر ممن قتل مدبراً ، وانظر أمَّـنْ يطلب اليك بالإجمال والتكرم أحق أن تسخو اليـه بطلبته أمَّن يطلب اليك بالشره . إعلم أنه ليس كل من كان لك فيه هوى فذكره ذاكرٌ بسوء وذكرته أنت بخير ينفعـه ذلك أو يضره ، فلا يستخفنك ذكر أحد من صديق أو عدو إلا في موطن دفع أو محاماة ، فان صديقك إذا وثق بك في مواطن المحاماة لم يحفل[1] ما تركت ممـا سوى ذلك ولم يكن له عليك سبيل لائمة ، وأن الأحزم في أمر عدوك ألا تذكره إلا حيث يضره وألاَّ تعد يسير الضرّ ضرّاً .

إعلم أن الرجل قد يكون حليماً فيحمله الحرص على أن يقال جليدٌ والمخافة أن يقال مَهين على أن يتـكلف الجهل ، وقد يكون الرجل

---

(١) حفل : بالى واهتم – لم يحفل الصديق : لم يهتم أو يكترث .

زميتاً [1] فيحمله الحرص على أن يقال لسنٌ والمخافة من أن يقال عيٌّ على أن يقول في غير موضعـــه فيكون هذراً ، فاعرف هذا وأشباهه واحترس منه كلـه . إذا بدهك أمران لا تدري أيهما أصوب فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه ، فان أكثر الصواب في خلاف الهوى .

ليجتمع في قلبك الافتقار الى الناس والاستغنـاء عنهم فيكون افتقارك اليهم في لين كلمتك وحسن بشرك ويكون استغناؤُك عنهم في نزاهة عرضك وبقاءِ عزك .

لا تجالس امرءاً بغير طريقته فإنك إن أردت لقـاء الجاهل بالعلم والجافي بالفقه والعَـيِّ بالبيان لم تزد على أن تضيع عقلك وتؤْذي جليسك بحملك عليه ثقل ما لا يعرف، وغمك إياه بمثل ما يغتم به الرجل الفصيح من مخاطبة الأعجمي الذي لا يفقه ، واعلم أنه ليس من علم تذكره عند غير أهله إلا عـادَوه ونصبوا [2] له ونقضوه عليك وحرصوا على أن يجعلوه جهلاً ، حتى أن كثيراً من اللهو واللعب الذي هو أخف الأشياء على الناس ليحضره من لا يعرفه فيثقل عليه ويغتم به .

ليعلم صاحبك أنك حَدِبٌ [3] على صاحبه وإياك إن عاشرك امرؤٌ ورافقك أن لا يرى منك بأحد من أصحابه وأخدانه رأفـــة فان ذلك يأخذ من القلوب مأخذاً، وإنَّ لطفك بصاحب صاحبك أحسن عنده

---

(١) الزميت :الحكيم الساكن القليل الكلام .

(٢) نصب فلان لفلان إذا قصد له وعاداه وتجرد له .

(٣) حدب : مشفق ، عطوف .

موقعاً من لطفك به بنفسه . اتق الفرح عند المحزون واعلم أنه يحقد على المنطلق ويشكر للمكتئب .

أدب الحديث

إعلم أنك ستسمع من جلسائك الرأي والحديث تنكره وتستجفيه من محدث عن نفسه أو عن غيره ، فلا يكونن منك التكذيب ولا التسخيف لشيء مما يأتي به جليسك ، ولا يجرئنك على ذلك أن تقول إنما حدث عن غيره فان كل مردود عليه سيمتعض من الرد ، وإن كان في القوم من تكره أن يستقر في قلبه ذلك القول لخطإ تخاف أن يُعقَد [١] عليه أو مضرة تخشاها على أحد ، فانك قادر على أن تنقض ذلك في سر فيكون أيسر للنقض وأبعد للبغضة . واعلم أن البغضة خوفٌ والمودة أمنٌ فاستكثر من المودة صامتاً ، فان الصمت يدعوها اليك ، وناطقاً بالحسنى فان المنطق الحسن يزيد في ود الصديق ويسهل سخيمة [٢] الوغر .

واعلم أن خَفْضَ الصوت وسكون الريح ومشيَ القصد [٣] من

(١) أي يصدّقه ، فيبني عليه رأيه وتصرفه .

(٢) السخيمة : الحقد والموجدة في النفس. والوغر من الوغْر: الاحتراق من الغيظ .

(٣) القصد: استقامة الطريق، ومنه قوله تعالى « وعلى الله قصد السبيل».

دواعي المودة إذا لم يخالط ذلك بأو[1] ولا عُجْبٌ . أما العجب فهو من دواعي المقت والشنآن . تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ومن حسن الاستماع إمهالُ المتكلم حتى يقضي حديثه وقلة التلفت الى الجواب والإقبالُ بالوجه والنظر الى المتكلم والوعيُ لما يقول .

واعلم أن المستشار ليس بكفيل والرأي ليس بمضمون بل الرأي كله غَرَرٌ[2] لأن أمور الدنيا ليس شيء منها بثقة ، ولأنه ليس شيء من أمرها يدركه الحازم إلا وقد يدركه العاجز بل ربما أعيى الحَزَمَةَ ما أمكن العجزة ، فاذا أشار عليك صاحبك برأي فلم تجد عاقبته على ما كنت تامل فلا تجعل ذلك عليه لوماً وعذلاً تقول أنت فعلت هذا بي وأنت أمرتني ولولا أنت ولا جرم لا أطيعك ، فإن هذا كله ضجرٌ ولؤمٌ وخفةٌ ، وإن كنت أنت المشير فعمل برأيك أو ترك فبدا صوابك فلا تمننّ ولا تكثرنّ ذكره إن كان في نجاح ، ولا تلم عليه إن كان استبان في تركه ضرراً تقول ألم أقل لك ألم أفعل ، فان هذا مجانب لأدب الحكماء .

اعلم فيما تكلم به صاحبك أن مما يهجّن[3] صواب ما تاتي به ويذهب بهجته ويزري بقبوله عجلتك في ذلك قبل أن يفضي إليك بذات نفسه،

---

(١) البأو والبأواء : الفخر بالنفس .

(٢) الغرر : الخطر والتعريض للهلاك .

(٣) يعيب القول .

ومن الأخلاق السيئة على كل حال مغالبةُ الرجل على كلامه والاعتراض فيه والقطع فيه . ومن الأخلاق التي أنت جدير بتركها إذا حدَّث الرجل حديثاً تعرفه ألاّ تسابقه إليه وتفتحه عليه وتشاركه فيه حتى كأنك تظهر للناس بأنك تريد أن يعلموا أنك تعلم من مثل الذي يعلم ، وما عليك أن تهنئه بذلك وتفرده به . وهذا الباب من أبواب البخل وأبوابهُ الغامضة كثيرة . وإذا كنت في قوم ليسوا بلغاء ولا فصحاء فدع التطاول عليهم في البلاغة أو الفصاحة .

اعلم أن بعض شدة الحذر عونٌ عليك فيا تحذر ، وأن شدة الاتقاء يدعو إليك ما تتقي .

إن رأيت نفسك تصاغرت الدنيا أو دعتك إلى الزهادة فيها على حال تعذّر منها عليك فلا يغرّنك ذلك من نفسك على تلك الحال ، فانها ليست بزهادة ولكنها ضجر واستخذاء [1] وتغير نفس عند ما أعجزك من الدنيا وغضبٌ منك عليها مما التوى [2] عليك منها ، ولو تممت على رفضها وأمسكت عن طلبها أوشكت أن ترى من نفسك من الضجر والجزع أشد من ضجرك الأول باضعاف ، ولكن إذا دعتك نفسك الى رفض الدنيا وهي مقبلة عليك فاسرع اجابتها .

اعرف عورتك وإياك أن تعرض بأحد فيا شاركها ، وإذا ذكرت من أحد خليقته فلا تناضل عنه مناضلة المدافع عن نفسه فتُتَّهَمَ بمثلها

(١) سأم . واسترخاء وخضوع .
(٢) شقّ وصَعُب .

ولا تلحَّ كل الالحاح، ولكن ما كان منك من غير اختلاط فان الاختلاط من محقِّقات الريب ، وإذا كنت في جماعة قومٍ أبداً فلا تعمنَّ جيلاً من الناس أو أمةً بشتم ولا ذم ، فانك لا تدري لعلك تتنـــاول بعض أعراض جلسائك ولا تعلم . ولا تذمنَّ مع ذلك اسماً من أسماء الرجال والنساء بأن تقول إن هذا لَقبيحٌ من الأسماء ، فإنك لا تدري لعل ذلك موافق لبعض جلسائك في بعض أسماءِ الاهلين والحرم ، ولا تستصغرنَّ من هذا شيئاً فكله يجرح في القلب وجرح اللسان أشد من جرح اليد . اعلم ان الناس يخدعون أنفسهم بالتعرض والتوقيع بالرجـــال في التماس مثالبهم ومساويهم ونقيصتهم وكل ذلك أبْيَنُ عند سامعيه من وَضَح الصّبح فلا تكوننَّ من ذلك في غرور ولا تجعلنَّ نفسك من أهله .

* * *

إني مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني وكان رأس مـــا أعظمه عندي صِغَر الدنيا في عينه ، كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا يدعو اليه مؤُونةً ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم إلا على ثقة أو منفعة ، وكان أكثر دهره صامتاً فإذا قال بذ [1] القائلين ، كان يُرَى متضاعفاً مستضعفاً فإذا جاء الجد

(١) بذَّ : غلب وفاق وسبق. ومنهُ صفة مشيه ﷺ :يمشي الهوينا يبذّ القوم إذا سارع الى خيرٍ أو مشى اليه .

فهو الليث عادياً ، وكان لا يدخـــل في دعوى ولا يشرك في مراءٍ ولا يدلي بحجة حتى يجد قاضياً عدلاً وشهوداً عدولاً ، وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء،ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعاً ، وكان لا يتبرَّم ولا يتسخَّط ولا يتشهَّى ولا يتشكى ولا ينتقم من الوليّ ولا يغفل عن العدوّ ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيءٍ من اهتمامه بحيلته وقوته .. فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت ولن تطيـق . ولكن أخذ القليل خيرٌ من ترك الجميع . وبالله التوفيق .



الفهرس

	صفحة
مقدمة الناشر	٥
ترجمة المؤلف	١١
الرسالة	١٧
أصول الأمور	١٩
مع الولاة وأصحاب السلطان	٢٤
الأصدقاء والمعارف	٣٩
أكرم الخصال	٤٥
أدب الحديث	٥٧

من منشورات دار النجاح

هذا الكتاب

.. « لا يعجبنك إكرام من يكرمك لمنزلة أو سلطان ، فان السلطة أوشك أمور الدنيا زوالاً . لا يعجبنك إكرامهم إياك للنسب فان الأنساب أقل مناقب الخير غناء عن أهلها في الدين والدنيا ، ولكن إذا أكرمت على دين أو مروءة فذلك فليعجبك ، فان المروءة لا تزايلك في الدنيا ، والدين لا يزايلك في الآخرة » .

.. واحدة من الحكم القيمة ، التي حفلت بها صفحات هذه « الدرة اليتيمة »لابن المقفع ، التي جمعت مع صغر حجمها بين أعلى طبقات البلاغة وأسمى درجات الحكمة .. ما جعلها خليقة أن يتخذها الكاتب نموذجاً لانشائه ومثالاً في البلاغة يحتذيه ..

نقدمها للقارىء العصري ، في هذه الطبعة الحديثة الاخراج والتبويب ، لعله يهتدي بما أوضحته من سبل التصرف الحكيمة ، في تيه مشكلات السلوك الاجتماعي في عصرنا الحديث .

الناشر

الثمن : ٣٠٠ ق. ل.

الناشر - دار النجاح - بيروت